النبوة والوحي في رسالة اللاهوت والسياسة عند باروخ اسبينوزا

د. محمد الساعدي اصبيع
كلية الآداب ـ جامعة سرت ـ ليبيا
misbei@yahoo.fr

الملخّص:

النبوة والوحي في رسالة اللاهوت والسياسة عند باروخ اسبينوزا، بحث في فلسفة الأديان، يناقش معطى جوهري في الدين، مؤثر في حياة الإ نسان في مختلف الجوانب المجتمعية.

يهتم هذا البحث بالدراسة في أثر ودور المفهوم التقليدي للنبوة والوحي في إنتاج حالة المفارقة بين الأنا واللاأنا، وما هو التصور البديل الذي يقترحه اسبينوزا لإخراج الإنسان من هذه الحالة؟ من وضعية المفارقة بين كل من الجانب المادي والروحي إلى إيجاد صيغة تطابقيه بين كل منهما، قادرة على تجاوز حالة التباين بين الخطاب الظاهر السائد في المجتمع وبين ما لدى الإنسان من إرادات وطموحات.

ما نقدمه في هذا البحث إنموذج فلسفي ديني شبه ناضج، والخبرة الفلسفية واضحة المعالم فيه على الأقل من جانبين هما: آلية التعامل مع المعلومة من حيث المنهج من جهة، ومن حيث المضمون والمحتوى من خلال التراكم المعرفي المشكل من خلال بعدين على الأقل. الأول يمثله تاريخ الدين، والثاني تاريخ الفلسفة من جهة أخرى.

الكلمات مفتاحية: فلسفة الأديان ـ باروخ اسبينوزا ـ اللاهوت ـ النبوة ـ الوحي

المقدمة:

النبوة والوحي في رسالة اللاهوت والسياسة عند باروخ اسبينوزا[1]، بحث في فلسفة الأديان، يناقش معطى جوهري في الدين، مؤثر في حياة الإنسان في مختلف الجوانب المجتمعية. جوهر الصراع الذي يعيشه الإنسان اليوم، رغم ادعاء البعض أنّه يعيش في عصر تجاوز هذا النوع من المسببات، إلا أنّ أثر المفاهيم والاختلاف في القناعات حيال هذه القضايا والمسائل الدينية الحساسة لدى كل أمة نجده دافعاً قوياً في زيادة حدة الصراع.

أوجه هذا الاندفاع والصراع الناتج بفعل قناعات دينية عقائدية محورها ونواتها الفهم الإنساني للنبوة والوحي، وما أنتجته من مفاهيم وقضايا له وجهان على الأقل، الأول شكله أممي وإنساني فيما بين الأمم المختلفة، كل حسب دينه غرباً وشرقاً، وشمالاً وجنوباً، والثاني داخل الأمة الواحدة، حيث كل طائفة، أو مجموعة تدعي لها تصور حيال الدين الأقدر والممثل للصورة الحقيقية للإله. وبالتالي تعتقد أنّها امتلكت الحق المقدس في أنْ تفرضه على الآخرين بأي وسيلة تراها مناسبة.

رغم اقتناعنا التام بأنّ التفاعل، الذي يصل أحياناً إلى حد الصراع، هو جوهر الكائن الحي حتى يضمن استمرارية وجوده إلا أنّ الأزمة هي المؤشر الذي نلاحظه في هذه الحالة. أزمة بحيث يسير الفرد داخل هذه الجماعة نحو تدمير وجوده، أو يسير في طريق تدمير نفسه دون وعي بذلك، هذا يعني فلسفياً أنّ هناك خلل في المنظومة الفكرية والاجتماعية التي تشكله، والتي منها الدين كمفهوم لديه.

هذا الخطر الوجودي هو الذي يستدعي كل الإمكانيات لدى الإنسان، وأولها التجربة الفلسفية بأنْ يكون لها موقف ورؤية حيال ذلك. من تلك التجارب الجديرة بالتأمل، فيها فيلسوف أحس مبكراً بمدى تأثير البعد اللاهوتي في الحياة المجتمعية باروخ اسبينوزا الذي عاش في حقبة تجلى فيها الصراع المدمر، الناتج من سيطرة المفهوم الكهنوتي للدين على المجتمع.

اللحظة التاريخية الفلسفية أتيحت لهذا الفيلسوف، متمكنا منها، لينتج أطروحة فلسفية متكاملة وناضجة من حيث التراكم المعرفي الفلسفي، فاتحة أفاق جديدة في الفلسفة، لتكون منطلقا لدى فلاسفة أخرين في إنتاج أبعاد فلسفية اخرى.

اسبينوزا في هذا الكتاب المثير للجدل (مقالة في اللاهوت والسياسة) وهو يتأمل في ماهيات الأفكار المؤثرة المنتجة للصراع المتأزم، أتجه بشكل مباشر نحو النواة المحركة لبقية الجزئيات المؤسسة، والمشكلة للأفكار والأفعال السائدة في هذا العصر، ليبلور تصوراً مغايراً لما هو مطروح، مستفيداً مما طرحه أقرانه من فلاسفة عصر التنوير والحداثة أمثال (رينبة ديكارت) ...

النمط التقليدي الديني المؤطر بمفهوم لاهوتي لفكرة النبوة والوحي المشكلة لكل مكوناتها العقائدية، والتعبدية، والمعاملاتية، والمبلورة لنمط ثقافي محدد للسلوك، والحاكم لكل المفاهيم

المجتمعية، تعد عاملاً مهماً في خلق حالة التأزم التي نعيشها اليوم، إنّها حالة ليست وليدة اللحظة ولكن جذورها في التاريخ. إنّه اجترار للتاريخ بفعل أحداث وتجارب قاسية مر بها الإنسان نتيجة لأزمات حياتية تعرض لها مما أنتجت مفاهيم غير عقلانية مؤسسة على الخرافة والأسطورة لتصبح فيما بعد عناصر مؤثرة في حياته ومنتجة لثقافته وسلوكه...

إنّها حالة المفارقة بين تلك المفاهيم المحددة للدين، على أساس انفعالي، فيه الأهواء عامل مؤثر في تصوره، وبين ما لدى الإنسان من ماهيات، وانطباعات، ومقولات عقلية محددة لرؤيته وتطلعاته في هذا الوجود. هذا التباين بين المكونين يعد عامل مهم من عوامل الصراع الذي كلف البشرية ثمنا باهظا على جميع الأصعدة.

وهكذا فأهمية هذا البحث تكمن في أنّ للفلسفة موقف فكري جاد، ولها دورها في البحث عن حلول عندما يتعرض المجتمع إلى أزمة. وأنّ الفيلسوف يتميز بالجراءة والمبادرة حتى في القضايا التي تعتبر من المحرمات في المجتمع. ومدى عمق الثراء المعرفي كما من حيث غزارة المعلومات المشكلة للبحث، وكيفا من حيث تنوع المجالات التي تهتم بها الفلسفة.

يسعى هذا البحث إلى تحقيق العديد من الأهداف. أولاً: تبيان مدى قدرة الفلسفة على التطور كغيرها من العلوم. ثانياً: إعادة الثقة في قدرة الإنسان على بلورة رؤيته في الحياة من خلال إبعاد الشوائب التي علقت به بحكم السيطرة الكهنوتية. ثالثا: صدق خاصية جوهرية يرتكز عليها المشروع الفلسفي وهي وحدة الانشغال الإنساني في القضايا المصيرية. وبالتالي ما سنراه في هذ البحث من الممكن أنيكون في اي مجتمع. رابعا: اكتشاف مهارات الفيلسوف في طرق تعاطيه مع القضايا التي تؤثر في المجتمع.

الإشكالية المحورية التي يرتكز عليها هذا البحث تتمثل في أثر ودور المفهوم التقليدي للنبوة والوحي عند باروخ اسبينوزا في إنتاج حالة المفارقة بين الأنا واللاأنا، وما هو التصور البديل الذي يقترحه لإخراج الإنسان من هذه الحالة؟ من وضعية المفارقة بين كل من الجانب المادي والروحي وبين إيجاد صيغة تطابقيه بين كل منهما، قادرة على تجاوز حالة التباين بين الخطاب الظاهر السائد في المجتمع وبين ما لدى الإنسان من إرادات وطموحات.

لا يمكن الشروع في تحليل هذه الإشكالية ما لم يتم طرح سؤال يتعلق بطبيعة الظروف المجتمعية والفكرية التي جعلت هذا الفيلسوف يعطي أولوية في الاهتمام لهذا الموضوع. الحداثة هي خاصية جوهرية نستنتجها من تسلط الضوء على طبيعة عصره. وبالتالي من أولى النقاط التي ينبغي بحثها، لإمكانية الدخول في معالجة إشكالية البحث الرئيسة، المشار إليها سابقاً، هي اكتشاف ومعرفة المنهج الذي أتبعه هذا الفيلسوف في تفكيك وتحليل مكونات مسألة النبوة والوحي، وإلى أي مدى تمكن من تطبيقه عليها.

البحث في مسألة المنهج أستلزم بالضرورة معالجة إشكالية مفهوم النبوة والوحي. بالتالي استوجب الأمر طرح العديد من الأسئلة في هذا المجال منها: ما هو مفهوم وطبيعة النبوة والوحي؟ وما هي علاقة كل منهما بالآخر؟ وما دور كل منهما في تأطير المفاهيم المجتمعية، وبلورة الصورة التقليدية لواقع اجتماعي يتصف بالانفعالية والخرافة، بعيدا كل البعد عن الحالة الإنسانية؟ وما علاقة كل من النبوة والوحي في تحديد مقاربة القانون الإلهي والطبيعي، ودورهما في تحقيق الميثاق الإلهي، المجسد للواقع الحياتي المحقق لسعادة وحرية الإنسان؟

ولمعالجة هذه الاشكالية، اعتمدنا في الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، الذي يجمع بين جزئيتين نراهما مهمتين في موضوع الدراسة، وطبيعة التخصص الدقيق مجال فلسفة الأديان هما؛ الوصف الذي يعتمد على الكم من المعلومات المهمة، المتمشية مع طبيعة الدين بشكل عام؛ والتحليل وتمثله الفلسفة التي تعتمد على الكيفية التي يتم فيها توظيف المعلومات الكمية الوصفية. من خلال الدراسة والبحث لموضوع بحثنا تبين لنا أنّ هذا المنهج الأقدر على الخوض في مضامين التحليل السبينوزي حيال مسألة دينية مهمة في مستوى الوحي والنبوة.

للإلمام بهذا الموضوع بجوانبه المختلفة نقترح ما لا يقل عن خمسة مباحث. أولها ظروف دافعة في طرح مسألة النبوة والوحي. حاولنا فيه تحديد أهم العوامل المجتمعية المشكلة لعصر اسبينوزا وتحديد مكوناتها المختلفة ليشكل أرضية ونقطة انطلاق في البحث على مستوى التحليل، ثانيهما منهجه في دراسة وتحليل مسألة النبوة والوحي في الدين. سببان يدفعنا للبحث في هذه الجزئية. الأول يتعلق بتبيان بأن باروخ اسبينوزا كان من الأوائل الذين استخدموا العقل والعلم في دراسة هذه المسائل، والثاني لكشف الأثر الذي تركه المنهج في مضمون هذه القضايا، إنه الأداة التي تمكننا

من الخوض في هذه المسألة الحساسة والتي كانت قبله تكاد أن تكون من المحرمات. أما المبحث الثالث فعنوانه نحو تحديد مفهوم وطبيعة النبوة والوحي والعلاقة بينهما. النقد التاريخي كمنهج محدد لهذه المسألة يميز بين صورتين وطبيعتين مغايرتين لهما. صورة تقليدية خرافية، وأخرى طبيعية منسجمة مع الحالة الدينية الحقيقية والإنسانية كفيلة بتحقيق السعادة والحرية لدى الإنسان. محصلة هذا المبحث الرابع والموسوم مقاربة القانون بين ما هو إلهي وطبيعي. إنّها محصلة الوحي الذي ينتج بفعل النبوة ليربط بين حقيقتين طالما كانتا منفصلتين في السابق لا علاقة بينهما ألا وهي الجانب الغيبي مع الجانب الواقعي. أما المبحث الخامس وهو المبحث الأخير ويحمل عنوان المضمون الحقيقي للوحي في الكتاب المقدس والميثاق الإلهي. دلالات هذا الميثاق تتعلق بمحاولة اسبينوزية لتجسيد المعنى الحقيقي لكل من النبوة والوحي، بما لا يتعارض مع ما يريد ويسعى إليه الإنسان لتكون الصورة في شكلها النهائي، كما يبحث في المعاني السامية لمفهوم النبوة والوحي لتكون منسجمة مع ما هناك من محددات مسبقة مؤطرة في الحالتين الطبيعية والإنسانية. هذا الانسجام ينتج حالة من الوئام والتوافق بين الحالة العامة المنظمة للوجود والإنسان من جهة وبين قيم الإنسان وطموحاته مع نفسه من جهة أخرى.

ما نقدمه في هذا البحث، إنموذج فلسفي ديني شبه ناضج، والخبرة الفلسفية واضحة المعالم فيه على الأقل من جانبين هما، ألية التعامل مع المعلومة من حيث المنهج من جهة، ومن حيث المضمون والمحتوى من خلال التراكم المعرفي المشكل من خلال بعدين على الأقل. الأول يمثله تاريخ الدين والثاني تاريخ الفلسفة من جهة أخرى.

المبحث الأول: مقدمات ساهمت في بلورة الرؤية نحو المسألة:

ما يميز الفلسفة في طريقة تعاطيها في القضايا التي تشغل الإنسان هو طبيعتها الإنسانية من حيث المنطلق والأداة والغاية. وبالتالي ما تقدمه من أطروحات قابلة للأخذ فيها والرد. هذا الأمر هو الذي يدعونا ويدفعنا إلى الربط بين رؤية اسبينوزا حيال مسألة النبوة والوحي وطبيعة الظروف الذاتية والموضوعية التي عاش فيها.

هذا يعني أنّ العلاقة حتمية بين الموقف الفلسفي حيال قضية ما والتجربة الشخصية وطبيعة العصر الذي جاء فيه. رغم ما يطلق عليه فؤاد زكريا في كتابه اسبينوزا، بالقضية الكبرى التي تعترض الباحث في حياة اسبينوزا [2] وخصوصية موقفه الفلسفي حيال هذه المسألة المقدسة على الأقل في عصره إلا أنّه لا ينفي تأثر الفيلسوف بعصره من حيث تحديد الأولويات للقضايا التي يستوجب طرحها، ومن حيث تحديد الموقف حيالها.

قدرة الفيلسوف تتجلى من خلال المنهج والخبرة الفلسفية المحددان لطبيعة الموقف الفلسفي. إنّها حصيلة المعطيات المشكلة لحياته من جهة، ومهارته بالتعامل مع الأطروحة الواقعية المتمثلة في الظروف الموضوعية والتجربة الشخصية بشكل نقدي من جهة اخرى، مما ينتج أطروحة تتجاوز الواقع تكون في كثير من الأحيان، مرفوضة وغير مقبولة في محيطه الاجتماعي.

العديد من المقدمات والعناصر يمكن تحديدها، نرى بانها، كان لها الأثر الواضح في تشكل رؤية باروخ اسبيتوزا نحو مسالة النبوة والوحي، في الحقبة التي صدر فيها كتابه. أولها: – الحالة العامة لعصره ودورها في تحديد أولويات القضايا الفلسفية التي تشغل الفيلسوف، ثانياً: – جذوره بكونه ينحدر من أصل يهودي. عنصر لعب دوراً في ضرورة البحث في الإشكاليات، التي تؤرق وتأزم المجتمع. لاسيما تلك التي تأتي من الدين، الذي يعتبر في ذلك العصر، معطى هام في تكوين المجتمع. أما ثالثاً: – فهو تكوينه التربوي، من حيث التنشئة في مراحل عمره المختلفة، وأهم المواقف، التي كان لها الأثر الواضح في بلورة موقفه حيال المسألة. ورابعاً وأخيراً تكوينه التعليمي والفكري والفلسفي، والتجارب المختلفة التي مر بها في حياته، وأثر ذلك في تحديد الجانب الشكلي والمضموني حيال مسألة النبوة والوحي.

أ. طبيعة عصره ودوره في تحديد المسألة كمقدمة أولى:

المتمعن في طبيعة العصر، الذي ظهر فيه اسبينوزا، يكتشف أنّ هناك ثلاث مكونات عامة تتحكم وتحدد ملامح عصره. الأول نطلق على تسميته بالاجترار، والثاني هو المخاض، والثالث هو البزوغ. ونقصد بالاجترار هو استمرار أثر تركيبة المجتمع الوسيط، من حيث مكوناته الثقافية، والفكرية، في الحياة اليومية للمجتمع. اكتسابه لهذه الخاصية، وهي التأثر والتأثير في المعطي

التاريخي الإنساني، بوجه عام، وأوروبا على وجه الخصوص، ناتج من طبيعة منظومته المجتمعية، المتشكلة من خلال منظومة فكرية، ذات طابع ثيولوجي، في مختلف مناحي الحياة. فكل القوى المتحكمة في المجتمع، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، تحالفت في منظومة كهنوتية، لتسيير المجتمع على أساس لاهوتي. لتحديد ماهية تشكل هذه الأطروحة، وأي لحظة ظهر فيها الفيلسوف اسبينوزا، يمكن القول إنّ هناك ثلاث مراحل مهمة، ساهمت في بلورة هذا الواقع المجتمعي، التأسيس، ونقصد بها البدايات الأولى لتكوين المنظومة المجتمعية في العصر الوسيط، ثم مرحلة التكوين، ونقصد به اكتمال تأسيس المجتمع، من جميع جوانبه المؤسساتية، والقانونية، والفكرية، أما المرحلة الأخيرة فهي بروز بوادر التأزم، والتصدع في المنظومة المجتمعية. في هذه المرحلة بالذات برز الملمح الثاني، في عصر اسبينوز، وهو المخاض، والذي نقصد به، الواقع المجتمعي بمختلف جوانبه السياسية، والاقتصادية، والثقافية، ولما للمؤسسات الدينية من دورمن خلال هيمنة الطبقة الكهنوتية، وقوى متماهية معها، أفرز علاقات اجتماعية، وأنماط فكرية أزمت، فأنتجت حالة من البؤس في المجتمع. أهم مظاهرها، إعلان المواجهة الشرسة للقوى التي تعمل على إيجاد مخرج، وعلاج لهذه الحالة. إنه اجترار للحالة، التي عاشتها أوروبا في فترة العصور الوسطى المتمثل في معطى الوصاية على الإنسان من قوى مؤسساتية مهيمنة عليه ومحددة لمصيره. يقول اسبينوزا في وصف لهذه الحالة: – " لقد دهشت مرارا من رؤية أناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والإخلاص لجميع الناس، ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون أشد أنواع الحقد، بحيث يظهر إيمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة. ومنذ زمن طويل وصلت الأمور إلى حد أصبح من المستحيل تقريبا التعرف على نوع عقيدة الشخص وهل هو مسيحي أو يهودي أو مسلما أو وثني، إلا من خلال مظهره الخارجي ومن ملابسه أو من تردده للعبادة على هذا المكان أو ذاك أو من قبوله لهذه المعتقدات أو تلك أو من قسمه بكلام هذا المعلم الروحي أو ذاك. وفيما عدا ذلك تتشابه حياتهم تماما"[3].

هذا الحال واكبه في نفس الوقت، صحوة انسانية، شكلت فيه الفلسفة والفلاسفة أحد أدواتها، بإعلان المواجهة على هذا الواقع المرير، من خلال الشك في كل ما هو موجود، من رؤى حيال منظومة الإنسان والمجتمع، من حيث وجوده، ودوره في الحياة. وإحلال محلها رؤى، ومفاهيم جديدة، تؤسس لبزوغ ملامح مجتمع حديث، الذي نعتبره الملمح الثالث المشكل لعصر اسبينوزا.

بدأ ذلك بدحض المنطق القديم الصوري، المبرر للحالة المكبلة لإرادة الإنسان، والمؤسسة، والمشرعة لصورة لأله الكنيسة، المهمين والمتحكم مع السلطة السياسية، في تحديد مفاهيم المجتمع. وإحلاله كبديل عنه، منطق فلسفي وعلمي، مؤسس على المقاس الطبيعي والإنساني. يعالج ويصحح تلك المفاهيم الخاطئة، التي تشكلت في غفلة من الإنسان. دون أن ننسي، طبيعة البلد، الذي عاش فيه وهو هولندا، التي كان لها دورا مهما في أوروبا، بالمساهمة في خلق الفكر والفلسفة، التي أنتجت المجتمع الجديد. وهذا يعود إلى التمييز المبكر لهذ البلد، من حيث منظومته المجتمعية، التي يمكن اعتبارها عامل جذب في احتضان العديد من الفلاسفة. وهذا ما يشير إليه، منذر شباني في كتابه اسبينوزا واللاهوت، "انعكس الازدهار الاقتصادي الهولندي، على الحياة الثقافية والعلمية، فقد شيدت مدرسة في كل قرية، وأمحت الأمية، وأبيحت حرية الفكر، وكذلك الكلام والصحافة. وسرعان ما تحولت هولندا إلى ملجأ للعقول الثائرة المتمردة، قال عنها ديكارت : " ليس ثمة غير هذا البلد فيه الحرية أكمل، والأمن أعظم والجريمة أندر، وبساطة العادات القديمة اروع""[4]

أثر هذا الوضع في هذا البلد، كان إيجابيا من حيث التكوين التربوي الفكري للعديد من الفلاسفة، ومن حيث إتاحة الفرصة لهم في التفكير الحر، من خلال المساهمة في طرح اشكاليات فلسفية، كان لها أثرها فيما عرف فيما بعد بالمجتمع الحديث.

رغم الخطوات المهمة، التي اتخذت في أتجاه تأسيس عالم جديد، إلا أنّ بذور الصراع والتأزم، لازالت موجودة بين تلك القيم القديمة والقيم الجديدة. لحسم هذا الصراع، والخروج نهائياً من تلك الحالة الغير مستقرة، دفعت اسبينوزا إلى البحث، وتحديد تلك العوامل، التي كان منها وأهمها اللاهوت بتسليط الضوء عليه بالدراسة والتحليل، لإمكانية إيجاد تصور قادر على مواءمة ومسايرة، المشروع الإنساني المطروح في تلك المرحلة.

ب. الأصل والجذور كمقدمة ثانية:

إحدى المعطيات الديناميكية، والتي لعبت دوراً في بلورة الإشكاليات الفلسفية الحديثة، هي الجذور العرقية السسيولوجية المختلفة في البناء الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية. فإحدى المكونات المهمة المشكلة لهذه المجتمعات، هي خصوصية التركيبة السسيولوجية المنسجمة مع البناء السياسي

والثقافي والديني. انغلاق هذا المكون، وعدم قدرته على التطور، وعدم قدرته على استيعاب ما نتج من أزمات وشكل واقع، يستوجب التدخل فيه من قبل مكونات اجتماعية منافسة له حسب مهارة وخبرة كل فئة اجتماعية. محصلة ذلك هو نفي المكون الاجتماعي العرقي التقليدي من خلال ظهور مفهوم ومكون اجتماعي المعطى العرق فيه لا يعني شيئاً ليحل محله المفهوم المصلحي، واللغوي، والثقافي.

إحدى المكونات التي كان لها دوراً مهماً في تكوين المجتمع الحديث، من خلال إبرازها للعديد من الفلاسفة، الذين عرفوا بدعوتهم بالحداثة، التي تعتبر، بالنسبة لهم، الطريق الوحيد الممكن للنجاة في وسط مجتمع غير قابل لهم، هم اليهود.

فهذا التأثير الفعلي لليهود في رسم خارطة السلطة والفكر في المجتمع، لم يأت من فراغ، بل ظهر نتيجة للتجارب وخبرات ومعاشرة لهذه المجتمعات. وما الفيلسوف اسبينوزا إلا إنموذجاً مهما لذلك. فهو ينتمي وينحدر من أسرة يهودية محافظة، من طائفة المارنين. هاجرت من البرتغال إلى هولندا بسبب سوء المعاملة، ومحاكم التفتيش المنتشرة في أوروبا في ذلك الوقت. فقد أمه وهو في الخامسة من عمره. عاش في حقبة حرجة بكونه يهودي يعيش في وسط مجتمع أوروبي محافظ له دينه التقليدي، وله تكونية الاجتماعي التقليدي المحافظ، وله تكوينه الاقتصادي الخاص به ذو الطبيعة الاقطاعية. هذا الحال أدى إلى ضرورة التمسك بخصوصيته الدينية، والاجتماعية، والثقافية، من نمط المعيشة في المجتمع الذي يعيشون فيه، وطريقة تشكل أبناءهم. وفي نوعية الأنشطة التي يمارسونها من أجل العيش والبقاء وهي التجارة، والحرص في ممارسة الطقوس الدينية في وقتها، والدعوة إلى محافظة على الدين...هذا الانتماء لليهودية لم يكن التعبير عنه متاحا بسبب حدة الصراع، وأوج قوة التركيبة الكهنوتية للمسيحية، وإعلان الحرب على كل ما هو ليس مسيحياً، مما أجبر هذه العائلة اليهودية إلى إعلان مسيحتها حتى يتم تجاوز هذه الظروف المهيمنة على المشهد.

جوهر ما سيبحثه هذا الفيلسوف في الدين فيما بعد يبرز من خلال هذه المعطيات الإشكالية التي كونت حياته الخاصة، وحياة أسرته ومجتمعة. فالصراع وعدم الاستقرار من العوامل التي دفعته

فيما بعد في الخوص فيما هو مقدساً ومحرما في مجتمعه، وما مسألة النبوة والوحي إلا إنموذجا لذلك.

ت. تكوينه التربوي من حيث التنشئة كمقدمة ثالثة:

التنشئة والتربية الدينية عند اسبينوزا سمة عامة، تميز بها تكوينه التربوي نتيجة لجذوره اليهودية. حرص أسرته على إشباعه بالقيم الدينية، لاسيما في مرحلة الطفولة. فقراءة الكتاب المقدس، والحرص على تعلمه وحفظه له، والإصرار على تأدية الطقوس والعبادات في وقتها المحدد. ونتيجة لنبوغ الصبي، كان يتمنى أباه ألا يخرج عن هذا الإطار، حامل للرسالة الدينية وهموم طائفته اليهودية، التي كانت تعيش في كنف محيط بيئة رافضة لها. وفي نفس الوقت كان يتربى في كنف أب يريد تنشئته على القدرة على تحمل المسئولية بتسيير الأمور التجارية، المجال الذي يشتغل فيه الأب، والذي كان يشتهر به. ما كان أبيه يطمح إليه الأب للابن، من دور تقليدي في الاعتقاد، وتعلم التجارة، لم يكن اختياره، بل تجاوز هذا، ليعطي معنى أخر للمسئولية أكثر تقدما، وهو الاهتمام بالشأن العام، من خلال البحث في القضايا المصيرية المتعلقة بمجتمعة.

ما يمكن ملاحظته، في هذ المعطى الخاص لنمط التربية، عدم قدرته على تفسير شخصية بحجم الفيلسوف اسبينوز، المتجاوز في فكره، ومواقفة للحالة اليهودية. فهو الفيلسوف المتمرد على قومه، والناقد لقواعد فكرهم. إنّه إنموذج مثير مدهش في حياته وفي نمط أفكاره.

لإيجاد مخرج لهذه المعضلة، لابد من أسلوب التحليل والتفسير، من خلال اعتبار التنشئة والتربية المحافظة، التي تلقاها اسبينوز في صغره، ليس هي المعطى الحاسم للشخصية، بقدر ما كان لهذا العامل أثر من ناحيتين. الأولى: – رغم التقليدية في طريقة التعامل مع الدين، والمنظومة القيمية المتشبع بها بفعل أسرته، إلا إنّه لا يمنع من اكتسابه خاصية الصدق والإخلاص، التي أفادته في التمييز بين ما هو صالح، وما هو طالح على مستوى الفكر، وهذا ما سنلمسه فيما بعد في أفكاره. إنّه تحصيل إيجابي اكتسبته الشخصية، سيبقى معها طيلة حياته. الثاني: – بكون هذا النمط من التنشئة هي خبرة كمية من المعلومات، تعينه على تحسس، وتبيان مدى الزيف والدجل الذي تشكل، بفعل الزمن في العادات والتقاليد المجتمعية. هذا المعطى أصبح دافعاً للمزيد من

التأمل والتفكير، في عديد من القضايا الفلسفية. هذ المعطى الذاتي في التأثير والفاعلية، اكتسب صفة الضرورة، في الوجود، لكنه غير كافياً، لا يكتمل إلا بالعامل الموضوعي، المتمثل في المجتمع وطبيعة العصر الذي ظهر فيه. مخاض مجتمعة أفرز رؤى وإشكاليات، استنهضت العديد من الفلاسفة في تبيان حدة الأزمة المجتمعية التي يعيشها المجتمع. اكتسابه المعرفي وتأثره بالعديد من الشخصيات، كان عاملاً محفزاً في أنْ يخوض غمار المغامرة في القضايا الفلسفية. وهذا ما سنلاحظه في التكوين المعرفي في شخصيته.

هـ. تكوينه التعليمي والفكري والفلسفي كمقدمة رابعة:

ثلاثة مراحل تعليمية من الممكن ذكرها في هذه المقدمة. المرحلة الأولى، تلقى تعليمه الأول في المدارس اليهودية في مدرسة بشيفا 1639- 1650م حيث تعلم اللغة العبرية وما تحتويه من مضامين ثقافية. وبعد وفاة أبيه، وعدم تمكنه تحقيق ما يريد، ينتقل إلى مرحلة أخرى من التعلم، والبحث تتعلق بالفلسفة والتلمود، لاسيما منها، الألواح اليهودية وأفكار ابن عزرا، والفلسفة اليهودية لابن ميمون، وفيلوا، وليفي بن جرسون، وابن جبرول، وجسداي.

تخلل هذه الحقبة، صدور قرار وحكم بالطرد والحرمان الكنسي من الطائفة اليهودية، الصادر عن المجلس الأعلى اليهودي من خلال الكنيست بأمستردام بتاريخ 27 يوليو 1656، ورد فيه "...، نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات في سفر الشريعة. وليكن مغضوباً وملعوناً، نهاراً وليلاً، وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه وخروجه ودخوله. ونرجو الله أنْ لا يشمله بعفوه أبداً. وأنْ ينزل عليه غضب الله وسخطه دائماً، ويحمله جميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة. ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذهم. وأنْ لا يتحدث معه أحد بكلمة، أو يتصل به كتابه، وأنْ لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأنْ لا يعيش أحد معه تحت سقف واحد، وأنْ لا يقترب أحد منه على مسافة أربعة أذرع، وأنْ لا يقرأ أحد شيئاً به قلمه أو أملاه لسانه." [5]

تأثير هذ الحكم على شخصية اسبينوزا يتجلى في البحث عن البديل للخط المحافظ. إنّه أفق جديد ساهم في بلورته تعلمه للغة اللاتينية في مدرسة الفيلسوف فرانسيس فان ايدن المعروف (بافينوس)، والتي درس فيها التاريخ، وفلسفة العصور القديمة من ابيقور إلى أفلاطون وأرسطو،

وأتجه نحو دراسة العصور الوسطى، وعصر النهضة والحديثة، منهم وجيو دانو برتو، فرانسيس بيكون، غرويتوس، وتوماس هوبر، وكذا أعمال نيقولا ميكيافيلي، دون أنْ ننسى الفيلسوف، الذي له أثر مهم في فلسفته، الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت...

سمة مهمة يمكن الإشارة إليها في طريقة التعاطي والاكتساب لهذه الخبرات المهمة، والتي ظهرت مبكراً لديه، هي قدرته في التفاعل مع هذه الخبرات، أي لم يكن متلقياً مستقبلاً، بقدر ما كان باحثاً عن الذي يهمه، وله مهارة التحليل والفرز للمعلومات التي يتلاقها. ففي كل خبرة مؤثرة ناقلة مؤدية إلى فتح آفاق جديدة، قادر على وضعها في المكان الذي يناسبها من وجهة نظره. ففي الوقت الذي فيه اكتشف ديكارت وأعجب بأفكاره، كان يراه أيضاً، له أوجه قصور، أصبحت فيما بعد مأخذ حقيقي على فلسفته. إنّه أصبح فيما بعد المرجع والمفسر الحقيقي لفلسفته، وهو الناقد لها. وهذا ما حدث أيضاً في قراءته للكتب المقدسة، التي درسها مبكراً بشكل مفصل، وأصبح فيما بعد الباحث والمحلل والناقد لها.

في الوقت الذي كانت الجلسات الكهنوتية كعنصر، يطمح إلى الاستقطاب من أجل التأطير الديني، فإنه في المقابل، ظهرت المحافل الحرة الرافضة لتلك التفسيرات المتطرفة، التي تضم جملة من الشخصيات المسيحية الرافضة للتفسير الكهنوتي الكنسي، والمنادي بالتفسير العقلاني للدين.

احتكاكه بعديد من الجمعيات مكنه من التعرف على العديد من الشخصيات التي هي قريبة منه في الفكر. تبادل الأفكار وتلاقحها هي السمة الغالبة على طبيعة هذه العلاقة، فمن هذه الجمعيات طائفة المجمعيين أو المحفلين التي تشكلت في سنة 1619، ومقرها بلدة رتسبورج، وهي من ضمن الذين يؤمنون أنّ الحقيقة الإلهية ليست بالضرورة تلك التي يتم معرفتها من خلال الكنيسة ورجال الدين. وكانت له علاقة أيضاً مع طائفة أخرى تسمى المينونية Monnonites نسبة إلى مؤسسها سيمون مينو Simon Menno، ظهرت في أواخر القرن السادس عشر. أهم دعواتها التخلص من الأساليب القديمة في الدعوة للدين، من مفاهيم مغلوطة، وأساليب دعوية جامدة، والدعوة إلى السلم الاجتماعي والتخلص من العنف بكل أشكاله.

وهكذا يمكن القول إنّ البذور الأولى للفكر التحرري العقلاني، والتي كان لها أثر وتأثير في شخصية اسبينوزا، تشكلت من خلال هذه المجموعات والجمعيات. لودفيج ماير odwiyk Meyerوهو طبيب وأديب، وبيتر بالنج Pieter Balling، وهو من المينونية، وجارج جلس Jarig Jelles، المترجم لأعماله ومؤلفاته، وكذلك سيمون دي فريس Simon de Vries، كل هؤلاء لعبوا دوراً في حياة الفيلسوف، لهم الأثر في بلورة الرؤية من خلال الحوار والنقاش، وتبادل الرؤى والأفكار.

من الصور والمواقف المؤثرة في حياته عندما كان طفلاً، والتي سيكون لها أثراً فيما بعد في موقفه من الدين، وقوفه أمام قبر (اريل اكستا- Uriel Dacosta) المنبوذ من بني جلدته علناً، لأنّه يرونه قد ألحد، فوضع لحياته حداً، بسبب الإساءة التي لحقت به من قومه والعذاب الذي تعرض له نتيجة لمواقفة الفكرية. يتسأل "ماذا يفرق الناس شيعاً في الفكر، فيصب بعضهم العذاب على بعض من أثر هذه الفرقة؟ وفي هذا اليوم بالذات كرس الصبي اليهودي نفسه لحياة البحث، دون أنْ يدري معنى ذلك حق الدراية"[6]

ما نستخلصه من هذا المبحث يتأتى من خلال محاولة تحديد الصورة العامة لفلسفته والتي حددها لنا جوزايا روسي في كتابه روح الفلسفة الحديثة بقوله " ...، على العموم وفي كل الأحوال يعتبر إسبينوزا من الفلاسفة الذين ينتمون إلى عصرهم أكثر من إنتمائهم إلى ديانتهم، فلم يكن فيلسوفاً يهودياً، وإنما فيلسوف يعبر عن حضارة عصره، فجاء فكره استمراراً للفكر الديكارتي وملتحماً مع المفكرين الأوربيين أكثر من ارتباطه بالمذاهب اليهودية"[7]. ولا يفسر ما جاء في هذا النص إلا بالقول إنّ اسبينوزا عاش في وسط تركيبة اجتماعية، وتربوية متناقضة، بين يهوديته من خلال أسرته ومحيط الاجتماعي اليهودي المنغلق، الذي كان يتعشم فيه، أنْ يكون أحد رجال الكنيست المدافع عن العقيدة اليهودية وبين مجتمع مسيحيي محافظ متأزم، بذور الرفض والدعوة إلى الإصلاح أخذت تأخذ مكانها شيئاً فشيئاً، وبذور التغيير بدأت تلوح في الأفق، من خلال ظهور العديد من الشخصيات الفكرية، التي أخذت على عاتقها البحث، والتحليل، والنقد لقواعد المجتمع التقليدي في ذلك الوقت. خصوصية تعاطيه مع ما هو تربوي، وما هو تعليمي ومع ما هو واقعي في الحياة العامة للناس، لعب دوراً في امتلاك الخصوصية في البحث عن قضية تعتبر

محورية في فلسفة اسبينوزا، بشكل عام في كتابه رسالته في اللاهوت والسياسة بشكل خاص ألا وهي الدين المؤثر في حياة الناس، والمشكلة لكل الرؤى السائدة في مجتمعه، وبالتالي كان لها دوراً في الواقع الاجتماعي المتأزم. ولكي يصل في هذه المسالة إلى نتائج مختلفة، وغير معهودة، لابد من البحث والتركيز قبل كل شيء على الأداة المتمثلة في اختيار المنهجية المناسبة، التي تؤمن له النتائج والحقائق، التي أخفيت بقصد، أو بغير قصد عن مستحقيها والمعنيين بها.

المبحث الثاني: منهجه في دراسة مسألة النبوة والوحي:

دراسة اسبينوزا للوحي والنبوة يأتي في هذ الكتاب في إطار تبيان الحد الفاصل بين كل من الدين والدولة. وعلى اعتبار أنّ الوحي والنبوة جزء لا يتجزأ من الدين، فإنّه بالضرورة لها تأثيرها القوي في بلورة وتشكل المعطى الديني في جزئياته المختلفة كما للدين في مجمله فيما بعد من تأثير في حثيثات الدولة والمجتمع. هذا التداخل والتمازج بين كل منهما، أكسب للدين الكلمة الفصل والقول الحسم. والمتأمل في هذا القول، كأطروحة فكرية، ومعطى نظري، ونتائج عملية، تتعلق بحياة الانسان، يدرك مدى الثمن، الذي دفعه الإنسان جراء هذا الواقع لدرجة إنّه أفقده حق البحث والتفكير والتحليل في هذه المعطيات المصيرية، المتعلقة بحياته الشخصية والمجتمعية. هذا ما عاشه اسبينوزا أمامه في الأربعة والأربعين التي عاشها. لهذا أول صرخة كانت وهو يعيش هذا الحال، دعوته بحرية التفلسف والتفكير والبحث في هذه القضايا، التي اعتبرت مقدسة ويحرم المساس بها.

مبدأ حرية التفكير والتفلسف في عصره، أخذ في الشيوع شيئاً فشيئاً، ولكن في حدود معينة في الغير مقدسة بينما عند اسبينوزا بات ضرورة رفع باب التحريم عن البحث والتحليل في القضايا الغيبية بسبب كونها المسؤولة على انهيار القيم الإنسانية في ذلك الوقت.

رغم تبيانه بشكل صريح في بداية هذا الكتاب، بأنّ الخوف على الدين، من جراء هذه الخطوة، خوف غير مبرر، من خلال اعتباره من الأهداف الرئيسة لهذا العمل "هو البرهنة على أنّ حرية التفلسف لا تمثل خطراً على التقوى، أو على سلامة الدولة بل إنّ القضاء عليها قضاء على سلامة الدولة وعلى التقوى ذاتها في آن واحد."[8]

الطريق الذي يسلكه ويختاره اسبينوزا، هو خيار الفيلسوف المقرر لإعادة الاعتبار لإرادة الإنسان، وكرامته ولقدراته وإمكانياته المعطلة، بفعل إرادة أخرى، تحمل شعار وتتكلم باسمه لمصالح نفعيه خاصه، شوهت القيم الأخلاقية والإنسانية، التي دعت إليها المشاريع المختلفة التي نادى بها الإنسان.

وهكذا أولى الخطوات التي نادي بها هذا الفيلسوف تشخيص الواقع الغيبي المتحكم في إرادة الإنسان والمسؤول عن تأزم المجتمع، الذي يعيش في ذلك الوقت. ولتحقيق ذلك علينا التفكير والبحث مليء في إيجاد الأداة المناسبة القادرة على تشخيص هذا الواقع، والقادرة على إيجاد الرؤى والقواعد المناسبة للمجتمع.

تحديد المنهج القويم والصحيح، الممثل لطبيعة الإنسان، الكفيل بفهم الحالة الغيبية، التي تسير الإنسان وإيجاد الطريق والمخرج المناسب لها. في بحثه لطبيعة هذا المنهج المناسب تبينت له حقيقة مفادها إنّ غياب العقل، وسيطرة الخرافة خاصية الحالة، التي يعيشها الفرد في مجتمعه في عصره.

يقول إسبينوزا " يعترف جميع الناس بأن الكتاب كلام الله وأنّه يعلم الناس السعادة الروحية الحقة أو طريق الخلاص. غير أنّ سلوك الناس يكشف عما يغاير ذلك تماماً لأنّ العامة لا يحرصون أبداً على أنْ يعيشوا وفقاً لتعاليم الكتاب المقدس، ونرى جميع الناس تقريباً وقد استبدلوا بكلام الله بدعهم الخاصة، ويبذلون قصارى جهودهم باسم الدين من أجل إرغام الآخرين على أنْ يفكروا مثلهم."[9]

تغليب الإنسان للغريزة على العقل، والعاطفة على الحكمة، جعل الخرافة، والأسطورة هي التصور الغالب على المجتمع وعلى رؤيته. "إنّ الطموح الإجرامي وحده هو الذي جعل من الدين دفاعاً عن بدع إنسانية أكثر منه إطاعة لتعاليم الروح المقدس، بل إنّه هو الذي جعله يستخدم في نشر أقسى أنواع الشقاق والكراهية بين الناس، لا في نشر الإحسان، وذلك تحت قناع الحماس لدين الله والإيمان المشبوب."[10]

نتيجة هذه الحالة، هو ظهور منهج ومنطق، أعتبره اسبينوزا المسؤول على بناء مضمون خرافي عاطفي شوه الصورة الحقيقية التي ينبغي أنْ تكون. يعتمد هذا المنهج كما يشير منذر شبابي في

كتابه إسبينوزا واللاهوت، على التأويل "... تأويل النص الديني، الذي سمح للاهوتيين ، كما يرى اسبينوزا " باستخلاص بدعهم الخاصة ،وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسرا، وتبرير هذه البدع والأحكام بالسلطة الإلهية."[11]. العلاقة وثيقة بين الطبيعة المفارقة للطبيعة اللاهوتية ومعطى التأويل، فلكل منهما دور في استمرارية ووجود الأخر. فالتصور المفارق للاهوت أنتج منظومه تشمل اسلوب ومنهج التأويل[12]. وهذا الأخير يبرر، ويطيل عمر، وجود هذا المعطى الغيبي. المحصلة تصورات لمجموعات متشضيه لنفس الدين، متباينة ومختلفة، تصل إلى درجة التضارب فيما بينها في الرؤى، وأحيانا تصل الحدة إلى الصراع الدموي فيما بينها. كل منها تدعي بأنها المالك والمعبر الحقيقي للكتاب المقدس، وما به من أبعاد دينية.

التأويل ليس فقط من منطلق ديني بأداة لاهوتية، ولكن أيضاً من منطلق ديني بأداة فلسفية أو من منطلق فلسفي بأداة دينية في إطار الربط بين النقل والعقل، أي بين الشريعة والفلسفة، وهذا النموذج يمثله موسي ابن ميمون[13] .التأويل كمنهج هو للإشكاليات التي طرحها التأويل التقليدي اللاهوتي، وللعديد من الإشكاليات المطروحة في الكتاب المقدس، منها تناقض المواقف حيال العديد من المسائل، غموض النص في ذاته حيال مسألة معينة، وعدم قدرة مجاراة للواقع وطبيعة فهم العقل البشري. لذلك لا مخرج من هذه الحالة المعرقلة لمواكبة لاستمرارية الدين، إلا باعتماد طريقة التأويل. هذه المرة، بجعل الفلسفة هي الأساس في فهم الكتاب المقدس. وهكذا يصبح التأويل عند ابن ميمون هو" المفتاح لفهم كل ما قاله الأنبياء، والمعرفة حقيقية تماما. وبهذا التأويل تتجاوز المعنى الظاهري للنفس إلى المعني المراد وكم بينهما من فرق"[14]. وهكذا فهو" يميز بين مستويين من التفسير أحدهما باطني والأخر ظاهري. ويذهب إلى أنه لزام على الفيلسوف أن يخفي رؤيته الباطنية خلف ستار العقيدة الظاهرية ، ويأمر تلميذه[15] بلا يفشي اسرار تعاليمه إلى الأخرين ومن هنا فانه يجعل مهمة قراءته وفهمه أكثر غموضا، هذا الغموض الذي لازال قائما حتى اليوم."[16] الكتاب لا يفسر بالكتاب، بل يحتاج إلى تفسير فلسفي، نجده عند الفلاسفة مثل أرسطو وافلاطون، لهذا وجدت العديد من المسائل، التي يشوبها الغموض او التناقض قد استعان برؤيته فيها إلى هؤلاء الفلاسفة.

هذه النتيجة، التي أدى إليها هذا المنهج التأويلي، لم يقبلها اسبينوزا، بسبب تدخل التجربة الفلسفية، والتفسير الإنساني في مضمون الكتاب، مما يعني بطريقة أو بأخرى تغيير لمضمون الكتاب المقدس. إنها فقدان الثقة في فيما موجود في الكتاب المقدس. يقول اسبينوزا ناقدا لمنهج ابن ميمون " فمنهج ابن ميمون إذا لا فائدة منه على الأطلاق، فضلاً عن أنه يقضي تماما على الثقة في فهم المعنى الحقيقي للكتاب، وهو ما يستطيع العامة الوصول إليه بمنهج آخر في التفسير. فنحن إذا نرفض طريقة أبن ميمون بوصفها طريقة فاسدة ممتنعة لا فائدة فيها"[17].

وواقع الأمر أنّ ابن ميمون، وكل مَنْ هم يتبنون هذا الاتجاه، يبنون نظرياتهم على مجموعة من الافتراضات، غير القابلة للبرهان عليها أو تبريرها. وأول هذه الافتراضات وأهمها، بنظر اسبينوزا، " أنّ الأنبياء التوراتيين متفقون فيما بينهم على جميع الموضوعات، وأنّهم كانوا جميعاً فلاسفة كباراً ولاهوتيين عظاماً، ويعطيهم قدرة الاستنتاج لأنّهم عرفوا الحقيقة."[18] من خلال هذه الفرضية يتجلى التأثير الفلسفي في طريقة رؤيته للكتاب المقدس من خلال التأسيس لتشكل آلية التحليل والتفكير الفلسفي عندما ذكر أنّ هناك إجماع بين الأنبياء في القضايا المراد التركيز عليها، وعندما حدد من هم الموكلين بمعالجة هذه القضايا بالتحليل وهم الأنبياء والذين أطلق عليهم فلاسفة كبار ولاهوتيين والذين أخيراً في هذه الفرضية لهم المقدرة على التحليل والاستنتاج واستشراف الحقيقة. أما الافتراض الثاني:- فهو اعتبار أنّه " لا يمكن البرهنة على معنى الكتاب بالكتاب نفسه، لأنّ حقيقة الأشياء التي يدعو إليها لا يمكن البرهنة عليها بالكتاب ذاته"[19]. تبرز هذه الفرضية الحاجة لتبرير وبرهان من خارج الكتاب المقدس حتى يتسنى لنا فهمه وإدراك ما به من حقائق وهذا لا يكون إلا بالفهم الفلسفي له الذي يقوم به الأنبياء. إنه استثمار للخبرة الفلسفية من حيث المنهج في فهم الكتاب المقدس. وبالتالي هذا يعني إخراج الكتاب المقدس من سياقه الديني إلى كتاب معرفي إنساني. وأما الافتراض الأخير فهو أنّ ابن ميمون يعتقد من حقنا " تفسير الكتاب وتأويله بطريقة متعسفة طبقاً لإرادتنا المسبقة، ورفض المعنى الحرفي عمداً واستبدال معانٍ أخرى به، حتى لو كان هذا المعنى الحرفي هو أوضح المعاني أو أقربها إلى الذهن."[20] نتيجة الفرضتين الأوليتين هي التي أدت إلى الفرضية الثالثة، وهو إعلان صريح بشرعية تأويل النص المقدس على اعتبار أنّه قابل للتأويل والتفسير. وهذا يعني نقل النص المقدس من حيث الدلالة والفهم كنص فلسفي، وبالتالي

ما نراه من نسبية في النص الفلسفي نجده ونلمسه أيضا في الكتاب المقدس. وهذ يعني ليس فقط تأويل للنص بل تحميله ما لا يحتمل.

محصلة كل ذلك، إبعاد الإنسان عن الفهم الحقيقي للكتاب المقدس، وفهم ماهية مسألة النبوة والوحي، واعطاءه بعدا خرافيا لا علاقة له بمضمونه الحقيقي. وبالتالي لا يمكن تصحيح هذا الوضع، إلا بالدعوة إلى منهج جديد. "... لكي نخرج أنفسنا من هذه المتاهات، ونحرر فكرنا من أحكام اللاهوتيين المسبقة، وحتى لا تؤمن غفلة منا ببدع من وضع البشر، وكأنها تعاليم ألهيه، يجب أن نتحدث عن المنهج الصحيح الذي يجب إتباعه لتفسير الكتاب، وأن يكون تصورنا له واضحا، فطالما كنا نجهله لن نستطيع أن نعلم شيئا يقينيا عن تعاليم الكتاب أو الروح القدس"[21].

يميز اسبينوزا في هذ النص بين شئين ببالغ الأهمية في موضوع بحثنا النبوة والوحي، هما الإرادة البشرية لما لها من مقدرة على اكتشاف حقائق الدين، والأخرى أمكانية استنتاج اليقين في مضامينه. جانبين كانا غائبين بسبب أنّ المنطلق المعرفي وأدواته وغاياته المعرفية ذات طابع غيبي.

وهكذا لا إمكانية لمعرفة الكتاب المقدس، والحقائق التي نادى بها، إلا من خلال إيجاد منهج ملائم له، قادر على تفسير مضامينه. في طبيعته عند اسبينوزا " إنّه لا يختلف في شيء عن المنهج الذي نتبعه في تفسير الطبيعة، بل يتفق معه في جميع جوانبه، فكما أنّ منهج تفسير الطبيعة يقوم أساساً وقبل كل شيء على ملاحظة الطبيعة، وجميع المعطيات اليقينية، ثم الانتهاء منها إلى تعريفات الأشياء الطبيعية، فكذلك يتحتم علينا، في تفسير الكتاب، أن نحصل على معرفة تاريخية مضبوطة وبعد الحصول عليها أي على معطيات ومبادي يقينية، يمكننا أن ننتهي من ذلك إلى استنتاج مشروع لفكر مؤلفي الكتاب"[22].

ما نلاحظه في هذا التحديد للمنهج ملاحظتين، الأولى: – تأثره الواضح بفلاسفة عصره، المؤسسين للمنهج في عصر النهضة، ومنهم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وفرنسيس بيكون، اللذين دعيا بضرورة التخلص من المنهج الصوري الأرسطي، وإحلال محله منهج علمي رياضي هندسي، قادر على تفسير الظواهر الطبيعية والإنسانية. الثانية، بقدرة هذا المنهج ليس فقط

بتفسير المسائل الطبيعية، بل أيضاً المسائل الغيبية، وعلى رأسها الكتاب المقدس. وهذه الأخيرة هي التي تميز بها هذا الفيلسوف.

إذا كان ديكارت أستخدم المنهج في المسائل الطبيعية فقط، وجعل المسائل الغيبية تحت عهدة التأويل الكهنوتي، فان اسبينوزا دعا بكل جرأة بقدرة هذا المنهج على الخوض في المسائل الغيبية. " فالقاعدة العامة التي نضعها لتفسير الكتاب هي ألا ننسب إليه أية تعاليم سوى تلك التي يثبت الفحص التاريخي بوضوح تام أنه قال بها"[23].

الفحص التاريخي يعني دخول الإرادة البشرية، وما لها من إمكانيات عقلية وغيرها في تحديد ماهية الكتاب المقدس وماهية الوحي وأبعاده. إنه إحياء لدور الفيلسوف الذي سلب منه منذ وقت ليس بقصير. إنها إعادة الثقة في الإنسان الذي خلقه الله لتأمل والتفكر وفق إمكانياته. هذه الثقة والقدرة الإنسانية التي كانت مسلوبة بفعل أحوال تاريخية مر بها المجتمع الإنساني، تفاعل معها في حدود وعيه المحدود، أصبحت في وضع يؤهلها اليوم أن تنتفض الغبار العالق في الكثير من المفاهيم والتي أهمها اكتشاف هذا المعطى المنهجي.

" والجدير ذكره أنّ اسبينوزا ربما كان ممن أسسوا لما سيدعوه علم التاريخ المعاصر (بالنقد الباطني السلبي) ، يقول منذر الشائيي عندما يتعلق الأمر على مستوى البحث التاريخي بمعرفة مؤلف وثيقة مجهولة المؤلف والعصر الذي كتبت فيه، ذلك أنّ سبينوزا يفرد قاعدة من قواعد الفحص التاريخي للكتاب، تتعلق بالمؤلف حصراً ، وهي تلك التي ترى أنّ على الفحص التاريخي أنْ يربط " كتب الانبياء التوراتيين بجميع الملابسات الخاصة التي حفظتها لنا الذاكرة، سيرة المؤلف ، وأخلاقه، والغاية التي كان يرمي إليها ومن هو وفي أي مناسبة كتب كتابه وفي أي وقت ولمن وبأية لغة كما يجب أن يقدم الفحص الظروف الخاصة بكل كتاب على حده : كيف جمع أولا، وما الأيدي التي تناولته وكم نسخة مختلفة معروفة عن النص."[24]

عرفت هذه الاعتبارات المنهجية، في دراسة أحداث التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لكن أن يطبق على الدين لاسيما منه على ما هو مقدسا الكتب السماوية وسير الإنبياء، فهذا أمر ليس سهلا من الناحية المبدئية، كون أن الإنسان وعلاقته بالمقدس، حالة معقدة، تتجاوز

حدود الوضع الطبيعي، فوق الواقع حالة متعالية وغيبية. وبالتالي طبيعة العلاقة البنية الغير واقعية، تعتمد على الاعتقاد الغيبي. وبالتالي دور الأنا يتمثل فقط الاعتقاد التام في كل ما ينتج عن اللانا.

وهكذا الشك فيما هو وارد في الكتاب المقدس المتداول لدى الكهنة، وعامة الناس، خطوة لتبيان ما هو حقيقي، وما هو زائف، بسبب خضوعه للزيغ الإنساني، لاسيما في حقبة معطى الأهواء، والاستغراق، في الذات وميولها، هي السمة الغالبة على المجتمع في طبيعة العصر الذي ظهرت فيه هذه الكتب المقدسة .

اسبينوزا يحدد مجموعة من العناصر، ينبغي مراعاتها، في إطار هذا المنهج الفحص التاريخي. يوجزها لنا في ثلاثة نقاط هي:

1- يجب أن يفهم طبيعة وخصائص اللغة التي دونت بها أسفار الكتاب المقدس والتي أعتاد مؤلفوها التحدث بها.

2- يجب تجميع آيات كل سفر وتصنيفها تحث موضوعات أساسية عددها محدود، حتى نستطيع العثور بسهولة على جميع الآيات المتعلقة بنفس الموضوع، وبعد ذلك، نجمع كل الآيات المتشابهة والمجملة، أو التي تعارض بعضها البعض.

3- يجب أنيربط هذا الفحص التاريخي كتب الأنبياء بجميع الملابسات الخاصة التي حفظتها لنا الذاكرة، أعني سيرة مؤلف كل كتاب وأخلاقه والغاية التي كان يرمي اليها ومن هو وفي اي مناسبة كتب كتابه وفي اي وقت ولمن وبأية لغة كتبه [25].

في مضمون كل نقطة من هذه النقاط تفرز إشكاليات وصعوبات لا تسهل مهمة المنهج المعني. اسبينوزا أدرك ذلك، وحددها بالنقاط الآتية:

1- صعوبة الإلمام التام باللغة العبرية وذلك بسبب عدم ترك علماء اللغة العبرية للخلف اي شيء .

2. تتجلى هذه الصعوبة في أنه يتطلب المعرفة التاريخية للظروف الخاصة لكل أسفار الكتاب، وهي معرفة لا تتوافر لدينا في معظم الأحيان.

3- الصعوبة الأخيرة: هي أننا لا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصلية ، أي في لغة كاتبها، فالرأي السائد هو أن أنجيل متى وكذلك الرسالة إلى العبرانيين قد كتبتا بالعبرية، تم فقد النص الأصلي."[26].

الشك في قدرة اللغة، والدقة في الاطلاع في معرفة الظروف التاريخية، وفقدان النص المكتوب به النص، نقاط موجهه إلى منهج اسبينوزا من الممكن تكون صحيحة، لكن هذا لا يبرر إتباع القراءة الغيبية السابقة، التي أرهقت المجتمعات. أما الرد الذي يقدمه الفيلسوف الهولندي، إنه شك في النور الطبيعي، الصادر من أولئك الذين لا يثقون في قدرة الأنسان. بالتالي هؤلاء يعانون من خلل في القدرة الذهنية، ونيتهم السيئة، حيال كل ما هو إنساني، وعدم أتباعهم للمنهج والأسلوب الصحيح. وبالتالي هؤلاء غير مؤهلين للمعرفة الإلهية من الأساس في إمكانياتهم وقدراتهم.

في طريقة تعامله منهجيا للنبوة، يحدد كل ما استخلصه من نتائج، هي تعود إلى" المبادئ الموحى بها في الكتب المقدسة "[27] وذلك لأنها تتجاوز حدود وإدراك الفهم البشري. " وهي موضوع اللاهوت الخالص، لذلك لم أكن استطيع أن اثبت أو أعلم شيئا بشأنها إلا من معطيات الوحي الأساسية، وبالتالي اضطررت إلى أن أفحص النبوة أولا كمؤرخ، وأن أستخلص من دراستي بعض النظريات التي تمكنني بالقدر المستطاع من معرفة طبيعتها وخصائصها"[28].

وبالتالي الربط بين كل منهما النبوة والوحي، المتجسد في الكتاب المقدس، من خلال التحجيم للبعد الغيبي في مسألة النبوة، والتركيز على البعد المتعلق بحياة البشر في مضمون وأبعاد الوحي، من خلال التركيز على القضايا التي تجمع المنتميين للدين، لتسود روح الوئام والسلام.

النور الفطري، كما يقول حسن حنفي في مقدمة الكتاب، الذي يقتضي استنباط الأشياء الغامضة من الاشياء الواضحة[29]، هي من صفات المنهج المحدد للإنسان، لمعرفة ما له وما عليه، وهو العامل المحدد لأولويات الإنسان بما فيها المسائل الغيبية، التي تجعله لا يتجاوز حددوه، مما

يجعله يتجه نحو الأبعاد الحقيقة المعبرة عن ما يريد، المتجسدة في الوحي من خلال الكتاب المقدس.

ينطلق اسبينوزا في ألية تطبيق منهجه، من العام إلى الخاص، ومن الكل إلى الجزء. فلهذا اعتبرت النبوة والوحي من المنطلقات، والمقدمات الأولى في تحليله في هذا الكتاب، والتي من الممكن اعتبار ما أستخلصه منها من نتائج هي تؤسس، لكل ما طرح من قضايا فيما بعد. وهذا ما سنلاحظه في المبحث الثالث.

المبحث الثالث: طبيعة الوحي والنبوة:

ما نستنتجه من دراستنا للمنهج عند اسبينوزا أنّه شرط ضروري في دراسة وفهم حقيقة النبوة والوحي، وأن جزء من عدم فهم حقيقة ورسالة هذه المسألة تعود إلى غياب الطريقة والأسلوب المناسب في معالجتها. من متطلبات هذه الدراسة، هي أن النبوة والوحي من المسائل، التي تخضع للدراسة. ومن الشروط المنهجية، التي هي معتمدة في منهج اسبينوزا في دراسته للوحي والنبوة، هو النقد التاريخي يسبق الأيمان بالوحي.

الفهم الخاطئ للإنسان لهذه المسألة، يعتبر بمثابة المسؤول على إثارة إحدى الإشكاليات المهمة المتعلقة "بدراسة لمصير الوحي في التاريخ وكيف أنه ينقلب إلى الضد(...). دراسة هذا القلب قلب الروح إلى مادة، والوحي إلى كتاب، والمعنى إلى حرف، والتدين إلى خرافة، والتقوى إلى طقوس وشعائر، والإيمان إلى تعصب، والحقيقة إلى بطلان، والتعاليم الإلهية إلى بدع، والنور الفطري إلى جهل، والمعابد إلى مسارح، والدين إلى وثنية، والإنسان إلى حيوان، وكان الدافع الحيوي ينتهي بالضرورة إلى سقوط مادي، وكأن اللهب ينتهي إلى رماد"[30].

ما نلاحظه في هذا النص عند اسبينوزا، إقراره بمسألة الوحي كحقيقة تاريخية لدى الإنسان، الذي وجد لغرض محدد وهو التغلب على الطبيعة الحسية المادية. تفاعله مع الأنسي أدى بمرور الوقت إلى عدم قدرته على تحقيق الهدف، الذي جاء من آجلة، لتظهر من جديد المعطي المادي والوثني والغرائزي، مستدلا بذلك الحالة اليهودية والمسيحية، سواء كان ذلك في التاريخ أو في عصره. وبالتالي فهو يثير تساؤلا عن ماهي مسببات تمظهر وتشكل هذه الحالة؟

علينا الأخذ في الاعتبار، تفريق اسبينوزا بين مظهرين من الوحي:" الوحي المكتوب والوحي المطبوع " الأول:- صيغ بلغة معينة، حسب ظروف معينة، عليه دلالاته صالحة لحقبة معينة، وبالتالي من الممكن تحريفه وتغييره. على هذا الأساس، يمكن دراسته وتحليله من حيث صحة الراوية، وطبيعة اللغة التي كتب بها ودقتها،...أما النوع الثاني:- فهو "مطبوع في القلب ومسطور في النفس، وبين صورتي الوحي بين الأرض والسماء "[31] وبالتالي فهو صافي ونقي.

من خلال دراسته للوحي للمكتوب، وتحليله له علميا، أدرك اسبينوزا، بأن هناك وحي مطبوع هو الكاشف للحقيقة، وهو المقدم المعني الحقيقي في وجود الإنسان.

من النقاط المهمة، التي تعكس الجانب المنهجي عند اسبينوزا، هو تقديمه لمسألة النبوة عن الوحي. باعتبار الأولى هي المنطلق والمشكل للثانية. وعلى اعتبار أن الوحي لا يمكن فهمه، إلا من خلال النبوة، ولا يمكن توثيقه ليكون كتاب مقدس من الله إلا من خلالها أيضا. لذلك أعتبر الوحي عنده هو " مصدر النص قبل التدوين".

تقديم النبوة عن الوحي، له دلالاته عند اسبينوزا، فتغليب الثانية على الأولى، يعني سيطرة البعد الغيبي على الفكر البشري، الذي بسببه فقد الإنسان القدرة على التمييز، بين ما هو حقيقي وما هو باطل، مما برر ظهور رؤي وقوى تسيير الإنسان إلى المجهول. وبالتالي تقديم النبوة لديه تعني بمثابة المفتاح الذي سيؤسس لفهم حقيقي للإنسان للمشروع الديني، وأوله سيكون في تحديد المضمون الحقيقي للوحي. إنه استعادة لدور الإنسان، الذي أبعد لسنين طويلة بفعل قوى تخاف من دوره.

" ... والنبوة في الغالب وحي مكتوب، فهي مصدر النص قبل التدوين. وتشمل النبوة جانبين: الأول:- صلتها بمصدر الوحي، أي النبوة على المستوي الرأسي كما تحدده صلة النبي بالله، والثاني:- النبوة صلة النبي بالرواة وانتقالها رواية إلى رواية، حتى يتم التدوين، ثم انتقال المصاحف من يد إلى يد حتى يتم التقنين، أي النبوة على المستوي الأفقي كما يحدده وضعها وانتقالها في التاريخ..."[32].

رغم ما نلاحظه من تركيزه للجانب الثاني عن الجانب الأول إلا أنه يمكن ملاحظة، الاتجاه نحو تخليص وتجريد البعد الغيبي المشوه للحقيقة الغيبية في الوحي قد ظهر مبكرا عند اسبينوزا. وذلك من خلال تحفظه على العديد من المفردات الشائعة في الجانب الأول. منها تلك المفردة المستخدمة، بشكل واسع في الديانتين اليهودية والمسيحية (روح الله) التي صورت بمعني مادي يعكس المفاهيم اللاهوتية المنتشرة في وقت ظهور الديانتين، وهي ما هي إلا لفظة مجازية شأنها سماء الله جبال الله، قدرة الله، ولا تعني سوى إرجاع كل الأشياء إلى الله.

الإنسان بروحه هو المحدد بطريقة تفاعلية لمسألة النبوة، والمشكلة لمضمون الوحي في حده الأدنى، في طريقة طرحه للمستهدفين به. فلولا النبي الذي هو إنسان لما كانت النبوة، ولولا وجود الإنسان لما وجد الوحي. فالإنسان هو المصدر في النبوة، وهو المعنى في الوحي والمستهدف به، وبالتالي يتجاوز المنطلق الالهي في مسألة النبوة.

لم ينكر اسبينوزا في هذا الكتاب الوحي، بكونه معرفة يقنيه، يوجهها الله للإنسان عن طريق النبي، المكلف منه بالتبليغ والتبشير والدعوة. ولكن في نفس الوقت القدرات الشخصية والتجربة الخاصة للنبي بكونه إنسان لها تأثيرها على شكل الوحي والتصور الديني. محصلة هذه الثنائية عند اسبينوزا هي صياغة للوحي بأسلوب النبي وفق استدلالاته الفطرية، وحسب البيئة التي يعيش فيها.

من خلال دراسته للكتب المقدسة يكتشف " أن الله قد أوحي للأنبياء بالكلام أو بالمظاهر الحسية أو بالطريقتين معا."[33].

في تحديده لطبيعة الوحي، وما يحمله من حقائق يقينيه، اسبينوزا يشير إلى ثلاث أسس هي: – " 1– تخيل الأنبياء للأشياء الموحى بها كأنها ماثلة أمامهم كما يحدث لنا عادة في حالة اليقظة عندما تتأثر بالأشياء 2– الآية 3– ميل قلوبهم إلى العدل والخير، وهذا أهم شيء"[34].

نتيجة هذه المكونات الثلاثة، هو ما سمي بالمعرفة النبوية، التي تختلف تماما عن المعرفة الطبيعية. الأولى تعتمد على المخيلة والإيمان عند الأنبياء، وما لها من صور مؤثرة على النفس، بينما الثانية تعتمد على العقل من خلال النور الفطري، لما له من دور في فهم وتفسير للحقائق الطبيعية.

الثاني: غاية الأولى العدل والخير، بينما غاية الثانية الحق. رغم هذا الاختلاف إلا إنهما في مستوى واحد من حيث المصدر، فكلاهما من الله.

في نقطة جوهرية في كلا الديانتين اليهودية والمسيحية، والتي ستثير جدلاً فيما بعد، هي تفريقه بين النبوة والحواري. فالنبوة هي تفويض من الله، واصطفاء له. بينما الحواري لا يحمل تفويضا من الله، وإنما تطوع منه. وإنما يتحدث باسمه، معبرا عن أفكاره وأراءه. النبوة لا تخطي فهي يقينية، بينما الحواري فهو يخطي ويصيب. النبي ليس في حاجة إلى البرهنة عما يقول، بسبب وثوق مصدره الإلهي. بالتالي التبليغ هي رسالته، بينما الحواري فهو يناقش ويحاور ويبرهن، وهو ينجح ويفشل في ذلك.

في الفصل الحادي عشر، يقول باروخ اسبينوزا في هذا الشأن " فيمكننا إذن أن نتساءل إنْ كان الحواريون في الرسائل" يتحدثون بوصفهم أنبياء أو يعلمون بوصفهم فقهاء. والآن فإذا فحصنا أسلوب "الرسائل" وجدنا أنه يختلف تماما عن أسلوب النبوة. فالأنبياء كانوا يؤكدون دائماً أنهم يتحدثون بتفويض من الله: هذا هو كلام الرب، يقول رب الجيوش، بأمر الرب.. إلخ، وليس ذلك في الأحاديث التي يلقونها علنا فقط، بل أيضاً في الرسائل التي تتضمن وحيا كما هو واضح في رسالة إيليا إلى يورام (انظر سفر الأخبار الثاني، 21:21) التي تبدأ أيضاً بهذه الكلمات: هذا هو كلام الرب، أما في رسائل الحواريين فلا نجد شيئا كهذا، بل على العكس يتحدث بولس في الرسالة الأولى إلى أهل كورشة (7) 40 وفقا لتفكيره الخاص. بل أننا نجد في فقرات كثيرة طرقا في الكلام تنم عن نفس مزعزعة مضطربة مثل : (رسالة إلى أهل رومية ، 3: 28) لأننا نحسب، وكذلك (18:8) وأني أحسب، وفقرات كثيرة أخرى مشابهة، وكذلك نجد طرقاً للكلام بعيد كل البعد عن السلطة النبوية، ..."[35] .

رغم قدرة النبي في التواصل الإلهي، من خلال استيعابه للوحي الإلهي، إلا أن ذلك لا يعني أن له صفة الكمال، لاسيما في المسائل الطبيعية، فهو قدرته في معرفة الأمور الطبيعية محدودة. والسبب يعود إلى كونه إنسان غير قادر على معرفة كل شيء مرة واحدة. إن ما نراه من إعجاب، يصل إلى درجة التقديس، في كثير من الأحيان. فهو ما هو إلا مواصفات روحية معنوية أخلاقية، من صدق ونبل وتواضع وقدرة في التواصل مع من حوله بكل يسر. وإنها مؤثرة في النفس البشرية

في العصر الذي ظهروا فيه هؤلاء الرسل والأنبياء، أكثر من أي جانب آخر نتيجة للسيطرة الغيبية والروحية.

وطريقة التعامل مع الوحي، تختلف من نبي عن أخر، كل حسب قدرته، وظروف كل منهم. وهذا الذي يفسر اختلاف في مضمون الكتب المقدسة. يقول اسبينوزا " أن الوحي الذي أرسله الله كان يتغير وفقا لفهم الأنبياء وأراءهم، وأن الأنبياء كان يمكن أن يجهلوا، بل وجهلوا بالفعل، تلك الموضوعات النظرية الخالصة التي لا تتعلق بالإحسان وبالحياة العملية، وأخيرا إن أراء الأنبياء كانت متعارضة فيما بينها"[36].

الحد الذي يضعه اسبينوزا للنبوة، يتعلق بالنبي الذي هو إنسان يبقى كائن غير كاملا إلا أن الوحي الذي جاء به هذا النبي من القدرة الإلهية من حيث الثقة والمصداقية فيه ومضمون الوحي، كفيل بتعويض هذا النقص بحيث تتهيأ لنا فيه صفة الكمال من خلال هذه الرسالة الربانية.

المبحث الرابع: مقاربة القانون بين ما هو إلهي وطبيعي:

من المقاربات المهمة التي أهتمت بها الفلسفة بشكل عام، والفلسفة الحديثة على وجه الخصوص، الأشكال الذي وصل إلى درجة التناقض والصراع، بين ما هو إلهي وما هو طبيعي. ما نعرفه وما هو شائع كل منهما يمثله تيار رافض وغير قابل للآخر، وكل منهما يكفر الآخر.

تخليص اسبينوزا للوحي من حيث المفهوم والطبيعة، من المضامين الخرافية والأسطورية ذات مفهوم ديني ظاهري مزيف، يخدم مصالح فئة معينة في وقت وعصر محدد، من شأنه أن يعد خطوة تمهيدية مهمة، في فلسفته بالانتقال "من النظر إلى العمل"[37]

في أحسن الأحوال، كان في طريقة النظر لمقاربة القانون بين ما هو إلهي وطبيعي، هو تغليب أحدهما عن الآخر وبالتالي يستوجب اختيار أحدهما .

من النتائج المهمة في تحليله للوحي والنبوة، هي وجود حقائق إلهية في النفس البشرية، تسييره وتدله على طريق الحق، من الممكن أن يصل إليها أي إنسان بشرط أن يهتدي للمنهج الصحيح، وهي التي تقربه من فكرة الله الصحيحة الخالية من التشويه.

وبالتالي اسبينوزا قد ربط النبوة بالمعرفة الفطرية عندما قال :" أن النبوة تتطابق تماما مع المعرفة الفطرية لأن ما تعرفه بالنور الفطري يعتمد على معرفة الله وحدها وعلى أوامره الأزلية. ولما كانت هذه المعرفة مشتركة بين الناس لأنها تعتمد على مبادي يعتنقها الجميع، فإنها لا تمثل أية أهمية للعامي الذي يولع بالنوادر والعجائب ، ويحتقر كل هبة فطرية ويعتقد أنه يستبعدها حين يتحدث عن المعرفة النبوية ، ومع ذلك فان للمعرفة الفطرية نفس الحق الذي يكون لأية معرفة أخرى في أن تسمى معرفة إلهية. لأنها أثر من أثار الطبيعة الإلهية، بقدر ما نشارك فيها، وأثر أيضا من آثار الأوامر الإلهية . هذه المعرفة الطبيعية لا تختلف عن تلك التي يتفق الجميع على تسميتها بالمعرفة الإلهية إلا في نقطة واحدة هي أن هذه المعرفة الإلهية تتعدى حدود المعرفة الفطرية، ولا يمكن تفسيرها بقوانين الطبيعة الإنسانية من حيث هي كذلك . ولكن المعرفة الفطرية لا تقل مطلقا عن المعرفة النبوية من حيث يقينها الذي تتميز به ومن حيث مصدرها الذي تصدر عنه (وهو الله) ... ومع أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة، فأننا لا يمكن أن نسمي من يقومون بنشرها أنبياء، اذ يستطيع كل فرد أن يدرك تعاليم المعرفة الفطرية ويفهمها بنفس اليقين، دون الاعتماد على الأيمان وحده ."[38].

بناء على ذلك فالإنسان يتجلى بكينونته في أرقى معانيها من خلال ثلاثة هي: "معرفة الأشياء بعللها الأولى، والسيطرة على انفعالاتنا أي الحصول على الفضيلة، وأخيراً العيش في سلام مع جسم سليم"[39].

التعارض بين ما هو إنساني وطبيعي وإلهي، أفرز قواعد وأسس دينية ومجتمعية منحرفة وغير سوية. فالالتزام بهذه القواعد يعتبر شكليا ومظهري، خوفا من العقاب، أو طمعا في الثواب. وبالتالي يشكل ذلك إنموذجاً شائعاً في المجتمع يختلف تماماً، عن الإنموذج الذي ينادي به اسبينوزا، يتعاملون الأفراد في النموذج، مع قواعد المجتمع وقوانينه، باعتبارها جزء منهم، لذلك يسعى صاحبه إلى الفضيلة، وتحقيق العدل. وهذا الأمر لا يتحقق إلا إذا أدركنا ما يسميه بالقانون بين ما هو إلهي وطبيعي، اللذان حسب اسبينوزا كل منهما يكمل الآخر.

يصل الإنسان إلى اليقين في المعرفة، عندما يعتمد في ذلك إلى الله، ويتوه ويضيع في دربه، عندما يتجاوز هذه الحقيقة. ولكن في نفس الوقت، لامعني لوجود الله ما لم تتواجد في الموجودات

الطبيعية. وبالتالي تصبح العلاقة طردية كلما ازداد تجسد الله في الأشياء، تأكد وجوده وكلما وجدت الأشياء في الله، أقترب الإنسان أكثر إلى اليقين.

إنه تجاوز لفكرة الإله الذي أستمر طويلا كفكرة منفصلة عن الأشياء والكائنات المشكل والخالق للأشياء والأفعال والقيم عن بعد.

ويقصد بحلول الله في الإنسان وتموضع الإنسان في الإله لا يعبر عنه إلا بالسيطرة لفكرة الخير والعدل، وغيرها من المفاهيم الأخلاقية الراقية. وحب الله هو السعادة القصوى والغاية الأخيرة لأفعال الإنسان، فإنه من يحب الله يكون بالضرورة مطيعا لله وقوانينه.

من خلال هذين الوجهين المشكلين للطبيعة في بعدها الإنساني والروحي، تبرز القواعد المنظمة للمنظومة الإنسانية والطبيعية من خلال شكليين من القوانين، القانون الإلهي والقانون الطبيعي.

القاسم المشترك لهذين الوجهتين، هو القانون الذي يحدده اسبينوزا كلفظة تطلق " على كل حالة يخضع فيها الأفراد منظورا إليهم كل على حده، سواء كان الأمر متعلقا بمجموع الموجودات أم ببعض الموجودات المنتمية إلى نفس النوع – لقاعدة سلوك واحدة محددة. ويتوقف القانون إما على ضرورة طبيعية وإما على قرار إنساني. فالقانون يكون معتمدا على ضرورة الطبيعة عندما يصدر بالضرورة من طبيعة الشيء ذاتها أو من تعريفه، ويكون معتمدا على القرار الإنساني – ويسمي عندئذ بالأحرى قاعدة تشريعية – عندما يفرضه البشر على أنفسهم وعلى الأخرين ليجعلوا الحياة أكثر أمنا وأكثر يسرا، أو لأسباب أخري."[40]. وهو أيضا " قاعدة للحياة يفرضها الإنسان على نفسه أو على الأخرين من أجل غاية"[41]. العدل هو الغاية ومضمون هذ القانون. عدم إدراك العامة لهذه الغاية هو الذي جعل القلة هي التي تفرض القانون فرضا على العامة. وهكذا يميز اسبينوزا بين نمطين من القانون، الأول:- خارجي لا يمت للحقيقة الإلهية والإنسانية بصلة، والثاني، داخلي بكونه الممثل للصورة الإلهية، من خلال كل الموجودات الطبيعية والإنسانية. الأول من صنيعة التزوير والتحريف، الذي حدث للدين بشكل عام ولاسيما منه مسألة الوحي والنبوة، التي وظفت في دلالاتهما بكون جعل الحقيقة ومصدرها خارج عن كل ما هو موجود سواء كان ماديا أم معنويا. أما الثاني، لا يتأتئ إلا بالإدراك والمعرفة من خلال كشف التزوير والتحريف،

الذي حدث في فهم مسألة النبوة والوحي، وكشف الحقيقة الإلهية المتجسدة في كل ما هو موجود، والذي معبر عنه في مضامين الوحي بالكتب المقدسة.

يتميز القانون الإلهي، بكونه شامل فهو معني بكل الناس، ويستنبط من طبيعة الإنسان، ولا يعتد بإقامة الشعائر والطقوس، وارتباطه بحبه لله بروح نقية وصافية من قبل المؤمنين به[42].

اعطاءه أهمية في هذا الكتاب للمعجزة خدمة في توضيح وإدراك هذا القانون، وهو محاولة منه لتجاوز ودحض للمفهوم الإلهي التقليدي، المبلور من رؤية الوحي والنبوة التقليدية، التي تقوم على معطيات خرافية وأسطورية. لهذا برز مفهوم المعجزة، كمعطي مفهوم يتجاوز المفهوم المنطقي والطبيعي للأشياء. إنه سياق تفكيري غير المنطقي، السائد في ذلك العصر، الذي ظهرت فيه هذه الأديان كاليهودية والمسيحية...، التي اعتمدت على المعجزة كطريقة لجمع الأتباع.

فالوحي الذي أعتبر في تمظهره، في صورته التقليدية، صورة من صور المعجزة، وفق المفاهيم التقليدية للدين. هذا الموقف عند اسبينوزا يفسر انعكاس لمرحلة معينة نتيجة لنمط معين في التفكير.

" إن كل ما يشاؤه الله أو يحدده يتضمن ضرورة وحقيقة أزليتين. والواقع أننا قد استنتجاه، من عدم تميز ذهن الله عن ارادته، أنه لا فرق بين قولنا إن الله يريد شيئا ما، وقولنا إنه يتصور شيئا ما: فإن نفس الضرورة التي تجعل الله وفقا لطبيعته وكماله يتصور شيئا على ما هو عليه، تجعله أيضا يريده على ما هو عليه. وإذن فلما كان أي شيء لا يكون حقيقيا، بالضرورة، إلا بأمر الله ، يترتب على ذلك بوضوح تام أن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية وكما لها. وإذن ، فلو حدث شيء في الطبيعة يناقض قوانينها العامة، كان هذا الشيء مناقضاً أيضاً لأمر الله وعقله وطبيعته . وإلا فان المرء لو سلم بأن الله يفعل ما يناقض قوانين الطبيعة، لأضطر إلى أن يسلم بانه يفعل ما يناقض طبيعته الخاصة، وهذا ممتنع كل الامتناع." [43].

اسبينوزا يعود إلى النظام والقانون، الذي ينظم حياة الموجودات، إنها الدليل الأقوى على وجود الإله وصدق ما ينادي به الرسل والأنبياء، لأنها تملك الحجة والدليل الساطع على وجودها أكثر من المعجزة، التي هي غير موجودة وأن حدوثها في زمن لا يمكن الوثوق به بكونها تعتمد على

فكرة الاعتقاد الغير الواقعي. أضف إلى ذلك اصطناعها لمفاهيم ونظم مجردة خرافية، تزيف الحقيقة الإلهية، وتأزم حياة الإنسان وتشكل رؤية خاطئة حيال مصيره.

سمة الثبات والعمومية، هي صفات جوهرية في طبيعة هذا القوانين، بكونها معبره وعاكسة للطبيعة الإلهية، دائما موجودة، وهي للجميع الناس والموجودات الطبيعية. التلازم ما بين وجود هذه الطبيعة الإلهية، وعلاقتها بالكائنات الأخرى، هي علاقة يصفها بالضرورة، فكل منهما مرتبط بالآخر.

الربط بين ما هو إلهي وما هو طبيعي من خلال القانون، الذي يتصف بالخلود وعدم التبدل، من شأنه أن يعيد التصالح بين ما هو غيبي، وما هو وجودي. من شأنه أن يعطي المعني المفقود لكل الأشياء لاسيما منها الأنسان، الذي فقد معناه بسبب اعتباره قاصرا وتابعا لقوي نابّة من واقع ومفاهيم مشوهة.

إنّها نقلة مهمة في حياة الموجودات، لإعادة الثقة فيها، ليكون لها دورها في الوجود من خلال دلالاتها المتجسدة فيها، وإعطاء القدرة للإنسان في فهمها الفهم الصحيح، لتؤدي دورها الذي وجدت من أجله.

المبحث الخامس : المضمون الحقيقي للوحي في الكتاب المقدس والميثاق الإلهي:

إحدى النقاط المسجلة على اسبينوزا في تقييمه للنبوة والوحي، وما توصل إليه من نتائج من خلال التحليل، هي تصوره المنقح، لمبدأ الميثاق الإلهي، الذي أعتبر انحراف عن المفهوم الحقيقي له. يرتكز المفهوم التقليدي للميثاق الإلهي على أنه عهد وتعاقد بين الإنسان وربه، من الإيمان بما أنزل من خلال الوحي وبكل ما جاء به الرسل والأنبياء، الذين كثير ما هم بذلك في الكتاب المقدس. بما فيها الولاء والطاعة، من خلال تطبيق مبدأ الاعتقاد في الإله والعبادة له، وتقديم القرابين والطقوس للكهنة، التي تعبر على الولاء له وكأداة للتواصل والربط بين الإنسان وربه.

نتيجة هذا المفهوم، استغراق في العقائد الغيبية المؤثرة في شخصية الإنسان، من إيجاد متناقض في سلوكياته وغير قادر على تحديد أولوياته، والمنتجة لمؤسسات كهنوتيه متحكمة في مصير المجتمع.

يميز اسبينوزا بين الوحي، وما به من مفهوم للميثاق، وبين ما هو بين أيدينا من تصور للكتاب المقدس بصورته الحالية. بحثه ودراسته للكتاب المقدس، الغرض منه إمكانية استنتاج الميثاق الحقيقي، الذي فقد بحكم التدخل المستمر عبر التاريخ في مضمون الكتاب المقدس.

محصلة هذه التدخلات، التي هي نتيجة لظروف مختلفة، تتعلق بالمجتمع أصبحت جزءاً أساسياً من الكتاب المقدس، وهي المحددة للمفاهيم والتصورات الأساسية للدين.

رغم اقتناع اسبينوزا التام أنّ الكتاب المقدس هو محرف، ولا يمثل في مجمله التوراة الحقيقي إلا أنه في النهاية هناك شذرات من هنا وهناك، تمثل المضمون الحقيقي للميثاق الإلهي، المعبر عما لدى الإنسان من أماني وطموحات.

ظهور الكتاب في حقبة تاريخية غير مؤهلة للتوثيق للكتاب بالأسلوب الصحيح، يجعله في كل مرة يتعرض للتعديل، وفي بعض الأحيان للإضافة.

التشكيك في طبيعة العهد الإلهي السائد بين الكهنوت اليوم، يبدأ لديه بالطعن في المصادر التي أستمد منها. وبالتالي اسبينوزا وجد نفسه في مواجهة نقدية لما يعرف بالكتاب المقدس. ففي الفصل الثامن من رسالته في اللاهوت والسياسة، يطعن في صحة الأسفار الخمسة، وأسفار يشوع، والقضاة، وراعوت، وصموئيل، والملوك. قبل تحديد مواطن الضعف في ثنايا ما لدينا من الكتاب، اسبينوزا يحدد اتجاهه بالدراسة بقوله " فقد كانت الخيانة سببا في أن أصبحت المعلومات التاريخية عن الكتاب ناقصة بل وكاذبة، أي أن الأسس التي تقوم عليها معرفة الكتاب ليست غير كافية فقط من حيث الكم، بحيث لا نستطيع أن نقيم عليها شيئاً كاملاً بل إنّها أيضاً معيبة من حيث الكيف. لذلك فقد أستقر عزمي على أن أصححها وأن أخلص اللاهوت من الأحكام المسبقة الشائعة فيه."[44].

أحدى المصادر المهمة للميثاق الإلهي، هي الأسفار الخمسة المتصدرة للعهد القديم ، والتي هي منسوبة لموسى عليه السلام. بدراسته وتحليله لهذه الأسفار، يتوصل اسبينوزا إلى العديد من المبررات تؤكد نتيجة مفادها، بأن المدون لهذه الأسفار لم يكن النبي موسى.

المبرر الأول يستمده من آراء كانت لابن عزرا، أكتنفها قلة الصراحة وغموض في التعبير لفظا، من وجهة نظره. " أما أنا فلن أخشى توضيحها وإظهار الحق ناصعا. هذه هي أقوال ابن عزرا في شرحه على " الثنية " : فيما وراء نهر الأردن .. إلخ لو كنت تعرف سر الاثني عشرة.. كتب موسى شريعته أيضاً .. وكان الكنعاني على الأرض.. سيوحي به على جبل الله.. ها هو ذا سريرة، سرير من حديد، حينئذ تعرف الحقيقة. بهذه الكلمات القليلة يبين، ويثبت في الوقت ذاته، أن موسى ليس هو مؤلف الأسفار الخمسة بل أن مؤلفها شخص أخر عاش بعده بزمن طويل، وأن موسى كتب سفرا مختلفا." [45].

وهكذا تتنوع ملاحظات باروخ اسبينوزا في هذه المقالة، على عدم تدوين موسى عليه السلام للأسفار الخمسة المتداول والمشار إليها عند أبن عزرا، منها ما هو حدث تاريخي لم يقم به موسى، المتمثل في ذكر مقدمة سقر التثنية في عبوره لنهر الأردن، وورود في نفس السفر الثنية، عبارة تؤكد بأنه ليس هو المدون" وقد كتب موسى هذه التوراة".

أضافة إلى ذلك النص الوارد في سفر التكوين (1:12) الذي" فيه يقص الراوي رحلة إبراهيم في بلاد الكنعانيين ويضيف والكنعانيون (والكنعاني) حينئذ في الأرض "

وهذا يعني ويشير بأنه شان لا علاقة له بتدوين النص وبالتالي نستنتج بأنها كتبت هذه الفقرات النصية بعد وفاة موسى. كما ورد أيضا في سفر التكوين (14:22) " أن جبل موريا سمي جبل الله".

وهذه معلومة غير صحيحة من وجهة نظر اسبينوزا " لأن هذا الاسم لم يظهر إلا بعد الشروع في بناء المعبد"[46]

يضيف أيضا ملاحظات أخرى من عنده، تشكك في علاقة موسى بالكتاب الحالي منها، التحدث عن موسى بضمير الغائب في العديد من المواضع ووجود عبارات " تحدث الله مع موسى " " كان الله مع موسى وجها لوجه" " كان موسى رجلا حليما مع أكثر جميع الناس" (العدد3:125) " لقد مات موسى خادم الله" (التثنية 17،1:2) " ولم يقم نبي من بعده في اسرائيل كموسى..."[47] وبالتالي أعتبر الأكثر تميزا في النبوة من أولئك الذين جاءوا بعده. هذا قول

لا يمكن أن يقوله موسى لأن به إشارة لفترة لما بعده. وذكر أسماء لأماكن لم تعرف أيضا في عهده "إذ يقال إن أبراهيم تابع أعداءه حتى دان"[48] (انظر التكوين، 14:14) وهذا أسم لمدينة لم يظهر إلا بعد موت يشوع.

رغم كل هذه التحفظات لم ينكر وجود كتاب من الله، أنزل على موسى، موجود بعض منه في ثنايا الكتاب المتداول اليوم من الممكن اعتبار مضمونه، يعبر عن الميثاق الحقيقي للإنسان مع ربه. سفر الخروج يشير إلى سفرين على الأقل تعبر عن رسالة موسى حسب اسبينوزا الأولى يسمى سفر حروب الرب، والثاني سفر العهد. عن سفر العهد يقول "كما جاء في الخروج (21-14) أن هناك سفرا آخر يعرف باسم سفر العهد، قراءه موسى أمام الإسرائيليين عندما عقدوا عهدا مع الله. ولا يحتوي هذا السفر أو هذه الرسالة إلا على أشياء قليلة، أي أنه لا يحتوي إلا على شرائع الله ووصاياه الموجودة في "الخروج" في الإصحاح 20 الاية22 حتى الإصحاح 24."[49]. أضف إلى ذلك كتابته لسفر يتضمن تلك الشرائع، التي فام بشرحها والتي سنها " في السنة الأربعين بعد الخروج من مصر"[50] أنظر التثنية، 1-5) والذي عرف بسفر توراه الله "المضاف إليه من قبل يشوع بعد ذلك بمدة طويلة رواية العهد الذي قطعه الشعب على نفسه من جديد في أيامه، وهو ثالث عهد يقيمونه مع الله ."[51] انظر يشوع 24: 25-26)

هذا السفر الأخير توراة الله، هو الذي أعتبره اسبينوزا مفقودا "وإلا فلنهذي مع يوناتان الشارح الكلداني الذي يتعسف في تأويل كلمات الكتاب حسب هواه." انه تعامل مع واقع، في ظل أمكانيات ذاتية متواضعة من قبل الناقل والشارح، وصعوبة للطبيعة الموضوعية، نتيجة للطابع الغيبي والمقدس. نتيجة هذا التعامل فقدان بقصد أو بغير قصد لهذا السفر المقدس. "نستنتج إذن أن سفر توراه الله هذا الذي كتبه موسى لم يكن من الأسفار الخمسة، بل كان سفرا مختلفا كلية، أدخله مؤلف الأسفار الخمسة في سفره في المكان الذي ارتآه..."[52].

من بين الأسفار المنسوبة لموسى، يشير اسبينوزا إلى أن سفر العهد الثاني والنشيد المعني، بضرورة المحافظة عليه وذلك لأهميته في حياة الناس، وبالتالي من هنا أصر على ضرورة تعلمه من كل فرد.

انها محاولة من اسبينوزا، للإعتراف بوجود ما أنزل من خلال الوحي من كلام للرب، الذي تمثل الرسالة والميثاق الحقيقي، الذي أفرغ معناه، وأخذ لطريق مخالف لما جاء به موسي . كثرة الكتابات، وادعاء كل واحد منهم، بأنه يمثل الكتاب الحقيقي، أوجد أنماطا من المعاني الدينية ذات الطابع الخرافي، وبالتالي أوجد تابعين للدين غير حقيقين ومنافقين.

"والحقيقة أن نصوص الأنبياء والحواريين نفسها هي التي تشهد أكثر مما يشهد العقل نفسه، بأن كلام الله الأبدي، وعهده والدين الحق مسطور على نحو إلهي في قلب الإنسان أي في الفكر الإنساني، وهذا هو الميثاق الحقيقي الذي طبعه الله بخاتمه، أي بفكرته و كأنه طبعه بصورة لألوهيته."[53]

يعود اسبينوزا إلى الإنسان، وسريرته وطبيعته الصادقة والصافية، في ظل العبث والتحريف، الذي أدخل على الكتاب المقدس. يقاس مدى قدسية ما جاء عن طريق الوحي، لدى المكلف بالرسالة بقدر، ما يحث الجموع على التقوى بالله ، التي هي مبدأ لا يتعارض مع الحالة المبدئية للطبيعة الإنسانية، بل على العكس فهي عامل كاشف، ما لدى الإنسان من أمكانيات وقدرات. أبعاد الرسالة والكتب المقدسة عن هذا الدور، الدعوة التقوي، أفقد الدين معناه الحقيقي، وسبب في حدوث اختراقات شوهت وحرفت الدين في مختلف جوانبه وأسسه.

"يطلق اسم "مقدس" و"إلهي"، يقول اسبينوزا، على كل ما يؤدي إلى التقوى وإلى الدين، ولا يظل الشيء مقدساً إلا إذا استمر الناس في استخدامه على نحو ديني. فإذا لم يعودوا أتقياء، ضاعت قدسية ما كان مقدساً من قبل."[54]

الدعوة إلى التقوى هي متطلب إلهي للإنسان، إنه ميثاق بين طرفيين بين الإنسان وربه. ولا يكون لهذه الدعوة معنى، إلا بالممارسة المستمرة لها من قبل المكلف بها. الكثير من الشعوب تخليها عن هذه الدعوة، بعدم الممارسة أدى إلى انحراف في دلالات ومعاني الكتاب المقدس ومضامين دينها.

لذلك في الفصل الثاني عشر، حرص اسبينوزا على اعتبار الكتاب المقدس إنه كلام الله. وهذا يعود حسب رأيه، لأسباب ثلاثة. "أولا: – لأنه يعلم الدين الصحيح الذي وضعه الله أزليا، ثانيا: – لأنه يتنبأ في صورة رواية بالمستقبل بقدر ما قضى به الأمر الإلهي. ثالثا: – لأن مؤلفيه

الحقيقيين كانوا في معظم الأحيان يدعون إلى ما حصلوا عليه بنور خاص بهم. لا بالنور الفطري، وجعلوا الله هو الذي يتحدث."[55]

ما بين الثبيت الإلهي بصفة أزلية، وقدرة على ضمان استمراريته في المستقبل، وتأكيد ووجوده كمعطى إلهي، يتجلى فقط البعد الأخلاقي، في صورة تعاليم أخلاقية، تؤمن للإنسان في حال إتباعها حياة الدينا والأخرة. الدعوة إلى" حب الله فوق كل شيء، وحب المرء لجاره كما يحب لنفسه" أنها المضمون الحقيقي للكتاب والشريعة، الذي لم يطاله الريبة والشك، وهي التي تستلزم بالضرورة إلى حقائق وأسس جوهرية في الدين تتمثل "أن الله موجود، وأن عنايته شاملة، وأنه قادر على كل شيء، وأن أمره يقضي بأن يكون التقي سعيدا والعاصي شقيا، وأن خلاصنا يتم بفضله."[56]. هذه القواعد العامة الدينية هي التي تؤدي إلى العديد من القواعد الأخلاقية، التي يراها اسبينوزا، هي جوهر ما جاء به الوحي من خلال النبوة التي ينطوي يقينها على يقين أخلاقي لا رياضي[57] ، والتي بقت راسخة فيه تتمثل في "الحرص على العدالة، ومساعدة المحتاج، والامتناع عن القتل، وعدم التطلع إلى ما يملكه الغير.. إلخ."[58]. هذه المبادئ الأخلاقية من شانها جعل ما جاء في الكتاب المقدس هي دعوة أبدية، تلبي احتياجات عامة الناس وتنظم حياتهم، والتي تتعرض إلى أزمات ومشكلات اجتماعية. أنها مبادي تخلص معاني ودلالات الكتاب المقدس من المفاهيم الخاصة النظرية، التي جعلت من الدين شأن خاص يهم فئة معينة، وحولت هذا الدين من مسار يهذب النفس ويرتقي ويسموا بها إلى مسار هرطقي دغمائي مشوه للميثاق الحقيقي الإلهي.

إدخال البعد الأخلاقي في ثنائية الأنا في اللأنا أدى إلى أنهاء الصورة النمطية للإله المادي المتعدد، المهتم بعملية الطقوس والعبادات وتقديم القرابين، والمبلور والمحدد للمعاملات المفروضة، التي لا تراعي وضعه وعلاقته بالآخر. المعرفة الحقة للإله، لا يتم أدراكها بالحجة المنطقية والعقلية، بقدر ما يتم تحسسها بالقيم العدلية والأخلاقية. عندها يصبح المطلب الإنساني للمعرفة التقليدية للإله لامعنى له. على اعتبار أن المؤمن في أحضان القدرة الإلهية من خلال ممارسته للفضيلة والابتعاد عن الرذيلة . وهذا ما يطلق عليه الباحث جلال الدين سعيد بالغاية العملية للكتاب المقدس عند سبينوزا وهي " تأمين قواعد للسلوك في الحياة."[59]

يبنى الميثاق بين المؤمن وربه من خلال الأيمان المطلق بالأول بالثاني. بأنه واحد لا شريك له، في وجوده سامي وحاضر في كل الأماكن، وجوهره خير ورحيم على نحو مطلق، وتقديم الولاء والطاعة من خلال ممارسة الفضيلة والعدل والإحسان[60] مع الجميع حتى مع أولئك الذين نختلف عنهم في العقيدة.

هذا الإطار والاعتبار الميثاقي هو الضامن لحياة مجتمعية مدنية وحضارية سليمة، تكفل للأفراد حقوقهم وواجباتهم، داخل مجتمع يراعي الخصوصية العقائدية لكل واحد منهم. لهذا أعتبر خطاب سبينوزا في مسألة المقدس حدثاً فلسفياً أثر في طبيعة الدراسات التي ظهرت خلال القرن السابع عشر...[61].

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة لمسالة النبوة والوحي في رسالة اللاهوت والسياسة عند اسبينوزا يمكن تحديد عاملان مهمان لعبا دورا في آلية التحليل لهذا الموضوع. الأول: – ذاتي يتعلق بسمات شخصية الفيلسوف والتي يمكن تحديدها بما لا يقل عن ثلاثة منها هي الإرادة والإصرار على الخوض في قضايا ليست هينه والوعي والبصيرة الذي يتجلى في طريقة التعاطي المسالة بطريقة تعتبر متقدمة مقارنة بطبيعة العصر الذي يعيش فيه وأخيراً الخبرة الفلسفية المتمثلة في الكم الهائل من المخزون المعرفي في مختلف الجوانب لاسيما الديني والفلسفي. والثاني: – يتمثل في البعد الموضوعي الممزوج بالعديد من العناصر المتداخلة من الأزمة المجتمعية المستفزة للفيلسوف بضرورة البحث في المسألة الدينية. منها بوادر الصراع بين القديم والجديد والذي ساهم في تشكيله وتحديده فلاسفة ومفكرين سبقوا اسبينوزا. أضف إلى ذلك خصوصية التكوين الاجتماعي الذي جاء منه الفيلسوف سواء كان ذلك من الناحية الدينية بكونه محافظ ومتدين وخصوصية تواجد هذه الطائفة في محيط مجتمع مغاير لها دينيا واجتماعيا.

هذان العاملان لعبا دورا في تحديد موقف اسبينوزا من القضايا الفرعية للمسألة الأساسية للنبوة والوحي من حيث المنهج ومن حيث الطبيعة والمفهوم وفي العلاقة بين ما هو طبيعي وإلهي في

القانون وفي المضمون الحقيقي للميثاق الإلهي وانعكاس ذلك في الطبيعة الأخلاقية لدى الأنسان كفرد وجماعة. محصلة هذا التحليل حيال هذه المسائل نوجزها بالآتي:

- امتلاك باروخ اسسبينوزا لخاصية جوهرية ينبغي أن تكون في الفيلسوف وهي الجرأة في تناول موضوع له حساسيته ومقدرته في المساهمة بإزاحة عثرة كانت تحول دون انتقال الإنسان من حالة لاهوتية إلى حالة عقلية حديثة.

- التزامه بالقضايا التي يفكر ويؤمن بها وتحمله كل التحديات والاستفزازات التي وجهت إليه من خلال أنتاج رؤى فلسفية رافضة لذلك الواقع الذي يعيشه.

- المساهمة في أيجاد منهج قادر على اختيار القضايا الدينية والتي منها الوحي والنبوة في الكتاب المقدس في وقت الطبقة الكهنوتية والفكر اللاهوتي هو المسيطر في المجتمع.

- أتباعه لأسلوب النقد التاريخي للرواية في الكتاب المقدس فتح الطريق أمام الآخرين من الفلاسفة بالمساهمة في تطوير الفكر الفلسفي الإنساني بظهور نظريات وأفكار خدمت الفكر البشري.

- تطبيق منهجه في مسألة النبوة والوحي من الممكن اعتبارها نقطة انطلاق نحو تحقيق الهدف الفلسفي المتمثل في أبعاد ما كان سائدا في هذه المسألة من خرافات وهرطقات شكلت هذه المسألة.

- الحالة التي تشغله في مجتمعه يراها سبب الأزمة المجتمعية هي محور اهتمامه بالبحث على مجتمع مستقر مؤسس على أسس أخلاقية يسودها العدل والاحترام المتبادل.

- هذه الحالة الأخلاقية وما بها من قيم مجتمعية هي الزاوية المحددة للدين بشكل عام والنبوة والوحي على وجه الخصوص.

- دور الأنبياء وما جاء به الوحي من رسائل الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي العدل الإلهي المتجسد في التكوين الإنساني والاجتماعي سواء كان ذلك بشكل ذاتي من خلال الطبيعة الإنسانية أو بشكل موضوعي من خلال القانون والناموس الطبيعي.

- سيادة هذه القيم والمبادي العدلية كفيلة بتجاوز المفارقة الناتجة بين الازدواجية التي يعيشها الإنسان بين ما يريد وبين ما هو واقع. وبالتالي تركيز الإنسان على هذ البعد الأخلاقي يعني تهميش مسألة الطقوس والأنماط التعبدية التي كانت في مرحلة ما هي الغاية.

الهوامش

[1] اعتبرت هذه الرسالة لدى العديد من الباحثين من أكثر أعمال باروخ اسبينوزا 1632-1677 إثارة للجدل من حيث شكل المقالة ومضمونها. كتبها باللغة اللاتنية الجديدة، ونشرت بدون أسمه سنة 1670، تحت إشراف جان ريوويرتيرز Jan Rieuwertsz، ومكان نشرها هي مدينة هامبورغ الألمانية، ومالك دار النشر هينريكوس كارنت Henricus Kunraht. اعتبر هذا العمل تمهيدا لكتاب أخر مهم صدر له 1677 تحت اسم(الأخلاق). ومن خلال هذاين الكتابين، يمكن القول إنهما ثورة في الفكر الفلسفي على المفاهيم التقليدية السائدة في ذلك الوقت، وتأسيس لمرحلة أخري في الفكر الفلسفي الديني.

وعن أهداف تأليف هذا الكتاب يقول الباحث جلال الدين سعيد في كتابه سبينوزا والكتاب المقدس الدين والأخلاق والسياسة: " ولقد عدد سبينوزا في رسالة إلي أحد المقربين من أصدقائه، الأسباب التي دفعته إلي تاليف (رسالة في اللاهوت والسياسة) فقال: " إني منكب حاليا على إعداد مصنف حول رؤيتي للكتاب المقدس، وإن الأسباب التي دفعتني إلي ذلك هي: 1- أحكام اللاهوتين المسبقة، إذ أعلم أن هذه الأحكام هي الحائل دون أن يتولي الناس ممارسة الفلسفة، أرى من المفيد، إذا، أن أفضحها، وأخلص العقول النيرة منها. 2- الفكرة التي يملكها عني العامي، إذ لا ينفك يتهمني بالألحاد، فأنا ملزم بمحاربتها قدر الإمكان. 3- حرية التفلسف والجهر برايناء فأنا أريد إثبات ذلك بكل الطرق، لما أراه لدى الوعاظ من سعي حثيث إلي القضاء عليها بكل ما أوتوا من سلطة مفرطة وحماس مشين."". للمزيد من المعلومات انظر لنفس المرجع ص 27-28.

[2] يشير إلي أن طبيعة هذه القضية الكبرى التي تواجه الباحث في البحث عن حياة اسبينوزا " أن مصادر هذه الحياة غامضة إلي حد بعيد، وأهم المصادر التقليدية المعروفة هي: تاريخ حياته كما كتبه الطبيب لوكاس أو (لوقا) Lucas وتاريخ حياته كما كتبه القس "كوليروس Colerus وأسمه الحقيقي Kohler، ثم نبذة عن حياته كما في مقال بعنوان " اسبينوزا " في القاموس التاريخي النقدي" الذي وضعه الفيسلوف الفرنسي "بيل Bayle " وهذه النصوص كلها اوردت وحققت في ذلك الكتاب القيم الذي وضعه فرويدنتال- Jakob Freuadenthal عن حياة اسبينوزا، وجمع فيه وثائق غاية في الأهمية تتعلق بحياة اسبينوزا أو أسرته ورأي المعاصرين واللاحقيين فيه..." ص18.

[3] باروخ إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان ،2005، ص113.

[4] منذر شباني، سبينوزا واللاهوت، منشورات وزراة الثقافة السورية الهيئة العامة للكتاب، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 2009، ص16.

[5] ول ديورانت، قصة الحضارة من افلاطون إلي جون ديوي، مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، بيروت، لبنان، 1988، ص193.

[6] قول لاسبينوزا مأخوذ من سلام كوبع العتيبي، اسبينوزا ذلك اليهودي المتشكك، مؤسسة الحوار المتمدن(موقع الكتروني) ، العدد 801، 11. 4. 2004.

[7] جوزايا روسي، روح الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى ، القاهرة، ج.م.ع، 2003، ص129.

[8] باروخ إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص107.

[9] نفس المصدر السابق، ص233.

[10] نفس المصدر السابق، ص233-234.

[11] منذر شباني، إسبينوزا واللاهوت، مرجع سابق، ص32.

[12] التأويل في معجم لسان العرب لابن منظور: " أول: الأول: الرجوع. آل الشئ يؤول أولا ومألا: رجع، وأول إليه الشئ: رجعه. وألت عن الشئ: ارتددت. وفي الحديث: " من صام الدهر فلا صام ولا آل"، أى لا رجع إلي خير، والأول الرجوع."..... وأول الكلام وتأوله: ديره وقدره، وتأوله: فسره. وقوله عز وجل: " ولما يأتهم تأويله"، أي لم يكن معهم علم تأويله، وهذا دليل على أن علم التأويل ينبغي أن ينظر فيه، وقيل: معناه لم يأتهم ما يؤول إليه أمرهم في التكذيب به من العقوبة، ودليل هذا قوله تعالي "كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين" . وفي حديث ابن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، قال أبن الأثير: هو من آل الشئ يؤول إلي كذا، أي: رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل: نقل اللفظ عن وضعه الأصلي إلي ما يحتاج إلي دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلي الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: " سبحانك اللهم وبحمدك"، يتأول القرأن، تعني أنه مأخوذ من قوله تعالي: (فسبح بحمد ربك واستغفره) (النصر:3)' وفي حديث الزهري قال: قلت لعروة: مابال عائشة تتم في السفر يعني في الصلاة قال: تأولت كما تأول عثمان، أراد بتأويل عثمان ما روي عنه أنه أتم الصلاة بمكة في الحج، وذلك أنه نوي الإقامة بها. التهذيب: وأما التأويل فهو تفعيل من أول يؤول تأويلا، وثلاثية آل يؤول أي رجع وعاد. وسئل ابوالعباس أحمد بن يحي عن التأويل والمعني والتفسير واحد قال أبومنصور: يقال ألت أؤوله إذا جمعته واصلحته، فكان التأويل جمع معاني ألفاظ اشكلت بلفظ واضح لا إشكال فيه. " ص 170-171. وفي معجم مختار الصحاح للرازي الحنفي زين الدين (ت 666هـ) التأويل من " أول: (التأويل) تفسير ما يؤول إليه الشئ، وقد (أوله) تأويلا و (تأوله بمعنى، و (آل) الرجل أهله وعياله، و (آله) أيضا أتباعه، و " الآل " الشخص، والآل ايضا الذي تراه في أول النهار وآخرى كأنه يرفع الشخوص وليس السراب، ..." ص13.

وفي موسوعة لالاند Lallande التأويل "هو "تفسير نصوص فلسفية أو دينية وبنحو خاص الكتاب(شرح مقدس) تقال هذه الكلمة خصوصا على ماهو رمزي". ص555. وفي الغرب عرفت هذه الكلمة الهيرمنيوطيقاHermeneutics كما تقول حسابن دواجي غالي في اطروحتها للدكتوراه الموسومة (الهرمتيوطيقا وإتيقا التخاطب) : " هي التعبير الإنجليزي للكلمة اليونانية الكلاسيكية Hermeneus (هرمس) وتعني المفسر أو الشارح، وتقول بعض المصادر قد عنون بها (

أرسطو (Aristote) إحدى رسائله في باب التفسير peri– hermencias وفي موضع من كتابات (أفلاطون) Platon وصف الشعراء بأنهم مفسري الله. وفي الأسطورة اليونانية كان هرمس رسول الألهة يتميز بسرعته ورشاقته، وكان عمله هو ان يتقل إلي أناس في الأرض (Olynpus). كان هرمس بنعله ذي الأجنحة على تجسير الفجوة بين الألهي والعالم البشري، ويصوغ بكلمات مفهومة ذلك الغموض القابع وراء القدرة البشرية على التعبير." ص19.

كما عرف التأويل عند أ. فوزية علوان في بحثها الموسوم (منهج التأويل في الفلسفة اليهودية، موسي أبن ميمون نموذجا)، بأنه " تقانة معرفية يستعملها المفكر من أجل التغلب على تناقض يثيره النص، تناقض النص مع نص، أو تناقض النص مع فكرة أو تناقض النص مع واقع يرجي تغييره والرد عليه." ص168.

[13] هو المعروف بابوعمران، واسمه موسي بن ميمون بن عبدالله القرطبي، عرف عند العرب بلقب الرئيس موسى وعند الغرب" ميمونيدس"Maimonides" ، ولد في قرطبة بالاندلس 30. مارس. 1135م وتوفي بالقاهرة في 13. ديسمبر، 1204م. عرف بتبحره في العلوم المختلفة منها الفلسفة والطب والرياضيات... له العديد من المؤلفات اهمها " مشناة توراة"، و " دلالة الحائرين في العقيدة اليهودية"، و"الفضول في الطب"، و "تأليف في الربو"، و "كتاب في السموم" و " التحرز من الأدوية الفتاكة"

[14] محمد يوسف موسي، بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط،، مؤسسة هنداوي سي آي سي، وندسور، المملكة المتحدة،2017، ص112.

[15]عن هوية هذا التلميذ يقول موسي ابن ميمون في الجزء الأول من كتابه المشهور دلالة الحائرين " كنت ايها العزيز الربي يوسف، صانك الصخرة، ابن الربي يهودا، سكنت نفسه جنه عدن، لما مثلت عندي وقصدت إلي من اقاصي البلاد للقراءة على، عظم شأنك عندي لشدة حرصك على الطلب، ولما رأيت في أشعارك ومقاماتك التي وصلتني _ وأنت مقيم بالاسكندرية _ من شدة الاشتياق للأمور النظرية. وقبل أن أمتحن تصورك قلت: لعل شوقه أقوى من إدراكه، فلما قراءت على ما قد قرأته من علم الهيئة، وما تقدم لك مما لابد منه توطئة لها من التعاليم، زدت بك غبطة لجودة ذهنك وسرعة تصورك ورأيت شوقك للتعاليم عظيما، فتركتك للارتياض فيها لعلمي بمآلك.

فلما قراءت على ما قد قراءته من صناعة المنطق، تعلقت آمالي بك ورأيتك أهلا لتكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغي أن يطلع عليه الكاملون، فأخذت ألوح لك تلويحات وأشير لك باشارات فرأيتك تطلب مني الأزدياد وتسومني أن أبين لك أشياء من الأمور الالإلهية وأن أخبرك بهذه مقاصد المتكلمين وطرائقهم. وهل تلك الطرق برهانية، وأن لم يكن، فمن أي صناعة هي؟ ورأيتك قد شدوت شيئاً من ذلك على غيري، وأنت حائر، قد بذتك الدهشة؛ ونفسك الشريفة فطالبك في طلب اقوال تعجب، فلم أزل أدفعك عن ذلك وآمرك أن تأخذ الأشياء على ترتيب قصدا مني أن يصح لك الحق بطرقه، لا أن يقع اليقين بالعرض. ولم أمتنع– طال أجتماعك بي إذا ما ذكر قول أو نص نصوص الحكماء، عليهم السلام، فيه تنبيه على معنى غريب– من تبين ذلك.

فلما قدر الله بالأفتراق وتوجهت إلي حيث توجهت، أثارت في تلك الأجتماعات عزيمة كانت قد فترت، وحركتي غيبتك لوضع هذه المقالة التي وضعتها لك ولأمثالك وقليل ما هم! وجعلتها فصولا منثورة؛ وكل ما انكتب منها فهو يصلك أولا فأولا حيث كنت، وأنت سالم." للمزيد من الإيضاح للنص أنظر للهامش في الصفحة 3–4.

[16] تمار رواد سكي، موسي ابن ميمون، ترجمة جمال الرفاعي، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ج م ع، الطبعة الأولى ، 2013، ص48.

[17] باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص253.

[18] نفس المصدر السابق، ص 253.

[19] نفس المصدر السابق، ص253.

[20] نفس المصدر السابق ص253.

[21] نفس المصدر السابق، ص234.

[22] نفس المصدر السابق، ص234.

[23] نفس المصدر السابق، ص236.

[24] منذر شباني، إسبينوزا واللاهوت، مرجع سابق، ص34.

[25] باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص237-238.

[26] نفس المصدر السابق، ص243-246-248.

[27] نفس المصدر السابق، ص229.

[28] نفس المصدرالسابق، ص229.

[29] حسن حنفي، المقدمة للطبعة الأولى ، اسبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص42.

[30] المرجع نفسه، ص18.

[31] المرجع نفسه، ص73.

[32] المرجع نفسه، ص44.

[33] باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص122.

[34] نفس المرجع السابق، ص145.

[35]نفس المصدر السابق، ص317-318.

[36] نفس المصدر السابق، ص162.

[37] انظر حسن حنفي، المقدمة، أسبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة، مرجع سابق، ص77.

[38] باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص120.

[39] نفس المصدر السابق، ص168.

[40] نفس المصدر السابق، ص183.

[41] نفس المصدر السابق، ص184-185.

[42] للمزيد من من التوضيح انظر إلي رسالة اسبينوزا في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، من الصفحة 187 إلي 189.

[43] نفس المصدر السابق، ص215

[44] نفس المصدر السابق ، ص257.

[45] نفس المصدر السابق ، ص258.

[46] نفس المصدر السابق ، ص259.

[47] نقس المصدر السايق، ص261.

[48] نفس المصدر السابق، ص262.

[49] نفس المصدر السابق، ص263.

[50] نفس المصدر السابق، ص263

[51] نفس المصدر السابق، ص264

[52] نفس المصدر السابق، ص264.

[53] نفس المصدر السايق، ص327.

[54] نفس المصدر السابق، ص329.

[55] نفس المصدر السابق، ص332.

[56] نفس المصدر السابق، ص335.

[57] هادي اركون، منهج سبينوزا في قراءة الكتاب المقدس، مؤسسة الحوار المتمدن، العدد 4780، 2015.

[58] إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، نفس المرجع السابق، ص335.

[59] جلال الدين سعيد، إسبينوزا والكتاب المقدس الدين والأخلاق والسياسة، مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى ، 2017، ص59.

[60] يحدد اسبينوزا العديد من المبادي التي يقوم عليها الموجود الاسمى المحب للعدل والاحسان والذي يستوجب طاعته وعبادته بممارسة الخير والعدل. للاطلاع على هذه المبادي يمكن الرجوع إلي الصفحة 350-351 من رسالة اسبينوزا في اللاهوت والسياسة.

[61] سفاري عبد الله، فكرة الدين عند اسبينوزا، رسالة لنيل درجة الاجازة العالية،كلية العلوم الإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية، العام الجامعي 2016-2017.